

يَسِّرُ الْوَسِيلَ عَنِ اللَّهِ

اسم الكتاب: يسألونك عن الله

المؤلف: الشيخ د. أكرم بركات

الناشر: بيت السراج للثقافة والنشر

الطبعة السابعة: بيروت ١٤٢٨هـ - ٢٠١٧م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ©

يَسِّرْ لِي الْوَيْدَ عَنِ اللَّهِ

الشيخ د. أكرم بركات

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة على منبر القائم عليه السلام

تضايا تلامس حاجة الناس في الفكر
والملوك وتضيء على طريق سعادة
الإنسان، وتوضح برنامجها تناولها الشيخ د.
أكرم بركات على منبر مسجد القائم عليه السلام
في الضاحية الجنوبية لبيروت ثم ألبسها ثوب
الكلمات المكتوبة بين يديك عسى أن
تكون محلاً للقبول.

المقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على أنبيائه أجمعين،
لا سيّما خاتمهم محمد بن عبد الله وآله الطاهرين.
رغم تدريسي لسنوات طويلة علم العقيدة في الحوزة
العلمية والمعاهد الثقافية، إلّا أنّي لم أقم بتدريس هذا
العلم الأساسي في المسجد؛ حذراً من عدم تفاعل الجمهور
العام مع مطالبه الحسّاسة، وعدم فهم الكثير منهم لبعض
موضوعاته المهمّة التي تحتاج إلى دراسة مقدّمات لا بدّ
أن تسبقها، إلّا أنّ ذلك زاد من نسبة الأسئلة الشبائيّة التي
كانت وما زالت تنهمر عليّ في جلسات الحوار المسجديّة بعد
الصلاتين، لا سيّما يوم الجمعة وأيام شهر رمضان المبارك.

وقد لاحظت أنّ الكثير من المطالب يتكرّر ويتكرّر، حتى أصبح لديّ خوفٌ من ملل بعض رواد هذه الجلسات من استماع الإجابات التي يتكرّر مضمونها، وإن وضعت في قوالب متنوّعة، مما حدا بي إلى التفكير في عرض عام لهذه المطالب العقائدية ارتأيت أن يكون في أيام شهر رمضان المبارك، لكن لا كدرس يخضع للمنهجية التدريسية الخاصة، بل من خلال أسئلة وأجوبة، تنتهي فيها الإجابة في جلسة واحدة في ٢٠ دقيقة، وذلك بأسلوب يقارب أذهان الحاضرين، فكانت هذه الأسئلة العشرة حول الله تعالى باكورة تلك الأسئلة التي أضعتها بين يدي القارئ الحبيب مكتوبة ضمن سلسلة على منبر القائم ﷺ لتعمّم الفائدة، عساها تكون ذخراً وظلاً لي يوم لا ظلّ إلا ظله.

أكرم

بيروت/ مسجد القائم

شهر رمضان ١٤٣٣هـ

كيف نتصور الله؟

كيف نواجهه من يقول: إن كل شيء موجود فهو محسوس، وبالتالي، فإن الله إما أن لا يكون موجوداً، وإما أن يكون محسوساً.

في مقام الإجابة نقول: انطلق البعض في حديثه عن «الله» من خلفية تحصر المعرفة بالأمور المحسوسة. وهذا الأمر أوجد اتجاهين:

الأول: اتجاه أنكر وجود الله؛ لأنه غير محسوس، فهو لا يُرى، ولا يُسمع، ولا يُلمس، وهكذا.

الثاني: اتجاه اعتقد أن الله محسوس، وله جسم، وبالتالي فهو يُرى، وهذا الاتجاه كما نجده قبل الإسلام، نجده في تاريخ المجتمع الإسلامي عند من عُرفوا في التاريخ بالمجسّمَة.

والنقاش مع هذين الاتجاهين يبدأ من خلفيّة حصرهم للمعرفة بالأمر الحسيّة؛ لأنّنا نلاحظ بشكل واضح أنّ المعرفة الإنسانية لا تقتصر على دائرة المحسوسات، وهذا ما نقاربه بالنقاط الآتية:

١- من المسلمّ به أنّ الإنسان يدرك وجود الزمان، فهل يصحُّ لأحدهم أن يقول: لقد بحثتُ عن الزمان في الكون فلم أراه، ولم أسمع له صوتاً، ولم أشمّ له رائحة، ولم أتلمّس له ملمساً؟
أم أنّ الزمان هو موجود في الموجودات، ومع الموجودات، وغير خارج عن الموجودات، إلاّ أنّه ليس في دائرة المحسوسات.

٢- من المسلمّ به أنّ الإنسان له قدرة عقلية يدرك من خلالها أموراً غير محسوسة كإدراكه استحالة التسلسل، فلو أنّ صفّاً من الرياضيين يستعدّ للانطلاق في رياضة الركض، إلاّ أنّ الرياضي رقم (١) لا يمكن أن يتحرّك إلاّ إذا تحرّك الرياضي رقم (٢)، والرياضي رقم (٢)

لا يمكن أن يتحرك إلا إذا تحرك الرياضي رقم (٣)،
والرياضي رقم (٢) لا يمكن أن يتحرك إلا إذا تحرك
الرياضي رقم (٤)، وهكذا رقم (٤) لا يمكن أن يتحرك
إلا إذا تحرك رقم (٥)... ورقم (١٠٠٠) لا يمكن أن
يتحرك إلا إذا تحرك رقم (١٠٠١)... ورقم مليون
لا يمكن أن يتحرك إلا إذا تحرك رقم مليون وواحد،
وهكذا إذا استمرينا في تعليق التحرك على آخر، فهل
يتحرك رقم (١)؟ قطعاً كلا. فإذا تحرك رقم (١)
نعلم قطعاً أنّ السلسلة توقفت عند من لا تتوقف حركته
على حركة آخر.

إذا التسلسل لا يمكن أن يؤدي إلى أيّ وجود. فإذا تحقق
وجود ما فإنّ ذلك يعني أنّ السلسلة قد توقفت عند وجود
غير معلق على وجود آخر.

وهنا نسال: من أين عرفنا هذه القضية واعتقدنا بها؟

هل رأيناها بالحسّ؟ أو أنّ في الإنسان قوة تسمى بقوة العقل
هي التي أدركتها؟!

وهكذا الحال من قضية «فاقد الشيء لا يعطيه»، فهي قضية قطعية، بمعنى أنني حينما لا يكون معي مال أو لدي علم، فمن المستحيل أن أعطيك مالاً أو أهبك علماً. فهل هذه القضية محسوسة؟!!

إذاً في الإنسان قوة عقل يستطيع من خلالها أن يدرك قضايا خارجة عن دائرة المحسوسات.

العقل ومعرفة الله

بناءً على ما تقدّم، فإننا نطلب معرفة الله من خلال العقل، فهل لنا إلى ذلك سبيل؟

الجواب: نعم، لنا إلى ذلك سبل كثيرة منها:

دليل الإمكان

نتطلق من خلال هذا الدليل مما نقطع بوجوده من الأمور المحسوسة، ولناخذ مثلاً لذلك هو «الديك». فهذا الديك لم يكن موجوداً ثم وُجد؟ وهو قبل أن يوجد كان من الممكن وجوده، ومن الممكن أن يبقى في دائرة العدم، أي كان متساوي النسبة بين الوجود والعدم.

وهنا نسأل: من أوجده، وأخرجه من الدائرة التي كان

يتساوى فيها بين الوجود والعدم؟

قد ينقلنا المجيب إلى أصل الديك، ويقول: إنه كان بيضة.

وهنا نسأل: من أوجدها، وأخرجها من الدائرة التي

كانت تتساوى فيها بين الوجود والعدم؟

وقد ينقلنا المجيب إلى أصل البيضة، ويقول: إنها كانت

نطفة.

وهنا نسأل: من أوجد النطفة، وأخرجها من تلك

الدائرة؟

وقد ينقلنا المجيب إلى أصل النطفة، ويقول: إنها كانت

نبته.

وهنا نسأل: من أوجد النبتة؟

وقد ينقلنا المجيب إلى أصل النبتة ويقول: إنها كانت بذرة.

وهنا نسأل: من أوجد البذرة؟

وقد ينقلنا المجيب إلى أصل البذرة ويقول: إنها كانت

تربة.

وهناك نسأل: من أوجد التربة؟

وقد ينقلنا المجيب إلى أصل التربة ويقول: إنها كانت ذرّة.

وهنا نسأل: من أوجد الذرّة؟

وقد ينقلنا المجيب إلى أصل الذرة من العناصر الثلاثة.

وهنا أيضاً نسأل: من أوجد تلك العناصر.

وهكذا يبقى السؤال، لكن لا يمكن أن يبقى المجيب ينقلنا إلى الحالة السابقة، بل لا بدّ أن نقف على أصل ليس له أصل، فنسأل من أوجده؟ والجواب عن من أوجده لا يمكن أن يتسلسل.

فإذا كان الجواب: إنّ الذي أوجده هو (ب) مثلاً؛

فإنّنا نسأل: من أوجد (ب)؟

فإذا قال: (ج)، فإنّنا نسأل: من أوجد (ج)؟

فإذا قال: (د)، فإنّنا نسأل: من أوجد (د)؟

فإذا قال: (هـ)، فإنّنا نسأل: من أوجد (هـ)؟

وخلفيّة سؤالنا هي أنّ (ب)، (ج) و(هـ) وغيرها لم تكن

موجودة، وكانت متساوية النسبة بين الوجود والعدم، ولا بدّ لها من مُخْرِجٍ ومُوجِدٍ، فمن هو الذي أخرجها وأوجدها؟ ولا يمكن أن تستمر الإجابة بـ (و) ثم (ز) ثم (ح) ثم (ط) وهكذا؛ لأنّ هذا يؤدي إلى التسلسل المستحيل كما تقدّم.

وبما أنّ الديك موجود يعني أنّ السلسلة قد وقفت عند نقطة لا تتوقّف على شيء آخر، ولا تحتاج في وجودها إلى من يوجدها، بل هي موجودة في نفسها، وليست متساوية النسبة إلى الوجود والعدم، بل إنّ وجودها ثابت بنفسه، وهذا ما يعبر عنه بـ «واجب الوجود» الذي هو علّة خلق العناصر الأولى والذرّة والتربة والبذرة والنبته والنطفة والبيضة والديك، وهو -أي واجب الوجود- لا يحتاج إلى من يوجده؛ لأنّ وجوده ذاتي له، لا ينفكّ عنه، وبالتالي فهو لا يحتاج في وجوده إلى شيء، يعني هو «غنيّ» مستغن عن كل شيء، لا حاجة له إلى شيء.

وهذا يعني أنّه غير مركّب؛ لأنّ المركّب يحتاج إلى

أجزائه، وهو غني لا يحتاج إلى شيء، وإذا كان غير مركب، فهذا يعني أنه لا جسم له؛ لأن الجسم مركب، وإذا كان لا جسم له، فهذا يعني أنه لا مكان ولا زمان له؛ لأن الجسم هو الذي يحتاج إلى مكان وزمان.

النتيجة = نفي الجسميّة عن الله.

آيات فهم منها التجسيم

إن هذه النتيجة القطعية توضح لنا العديد من الآيات القرآنية كقوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١).

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢).

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٣).

وعلى أساس هذه النتيجة يجب أن تفهم الآيات القرآنية التي لم تفهمها جيداً فرقة المجسّمة، فاعتقدت أن لله تعالى جسماً. ونعرض نماذج منها، مع تعليق يسير حول معناها.

(١) سورة الشورى، الآية ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية ١١٥.

(٣) سورة الحديد، الآية ٤.

أ- وجه الله

قال تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١).

﴿إِنَّمَا نُنْطِقُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾^(٢).

المعنى

إنَّ الوجه في لغة العرب يستعمل بعدة معانٍ منها:

الصفحة الأمامية من رأس الإنسان التي تشمل الجبهة والعينين والأنف والضم.

الذات، قال الزمخشري: «مساكين مكة يقولون: أي

وجه عربي كريم ينقذني من الهوان»^(٣).

الاتجاه، يقال: هذا وجه الطريق.

وعليه يمكن تفسير ما تقدّم من التعبير بوجه الله بأحد

أمرين:

(١) سورة القصص، الآية ٨٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٩.

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، (لاط)، مصر، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٦٦م، ج٤، ص٤٦.

كلّ شيء هالك إلا ذات الله، وإنما نطعمكم لذات الله.
كلّ شيء هالك إلا ما أريد به وجه الله، أي كان الله تعالى
هو وجهة عمله.

أنشد الفراء:

استغفر الله ذنباً لست محصيه ربّ العباد إليه الوجه والعمل

ب- عين الله

﴿وَلِصْنَعِ عَلَيَّ عَيْنِي﴾^(١).

المعنى

إنّ العين تستعمل في اللغة العربية بالمعنى المناسب لفعل
العين كالمشاهدة، وعليه فمعنى الآية هو تربى بعلم ومشهد
منّي، بحيث أراقب حالك وأرعاك، وأحفظك، ولا أغفل عنك.

ج- يد الله

قال الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢).

(١) سورة طه، الآية ٣٩.

(٢) سورة الفتح، الآية ١٠.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعْنُوا مَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ
مَبْسُوطَتَانِ ﴿١﴾﴾

﴿قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴿٢﴾﴾

المعنى

إنَّ اليد في لغة العرب تستعمل بمعانٍ عديدة منها:
الجارحة المعروفة في بدن الإنسان، على تفصيل في
تحديدتها إلى الكتف، أو إلى المرفق، أو إلى الزند، أو غير ذلك.
القدرة والاستطاعة، كقولنا: خرج الأمر عن يدي،
وقولنا: إنَّ الأمر لم يكن في يدي.

النعمة والعون، كقولنا: لفلان يد مشكورة في بناء
المسجد.

قال الشاعر:

ولن أذكر النعمان إلا بصالح فإن له عندي يدياً وأنعماً
العلاقة في الأمر، كقولنا: لفلان يد في الجريمة.

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٢) سورة ص، الآية ٧٥.

وعليه يمكن تفسير قوله تعالى:

يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ : أي قدرته تعالى فوق قدرتهم.
بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ : أي نعم الدنيا ونعم الآخرة، أو
 النعم الظاهرة والنعم الباطنة، أو قدرة الثواب وقدرة
 العقاب، فهما مبسوطتان، بخلاف قول اليهود: بأنّ يده
 مقبوضة عن عذابهم.

د- الساق

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(١).

المعنى:

إنّ هذا التعبير ورد في استعمالات العرب في مورد الشدة،
 يقولون: «قامت الحرب على ساق» أي اشتدت.

قال الشاعر:

وشمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجذّوا

(١) سورة القلم، الآية ٤٢.

وعليه، فمعنى الآية يوم يشدد الأمر، وهذا إشارة إلى هول يوم القيامة العظيم، وفرعه الشديد.

ه- النظر إلى الله

قال تعالى:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١﴾﴾

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴿٢﴾﴾

﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنَّ آظُنْرًا إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي ﴿٢﴾﴾

المعنى

أولاً: إنَّ النظر لا يعني الرؤية؛ إذ يصح القول: نظرت إلى الهلال فلم أراه.

ثانياً: يستعمل النظر في لغة العرب بمعنى الانتظار، وبهذا

المعنى قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ

(١) سورة القيامة، الآيتان ٢٢-٢٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾. أي منتظرة بم يرجع المرسلون. وعليه يمكن تفسير الآية الأولى: بأنها منتظرة لثواب الله تعالى، ويمكن تقدير مضاف بأن يكون المعنى: وجوه إلى ثواب ربّها ناظرة، أي ناظرة إلى النعيم في الجنة.

ثالثاً: فيما خصّ آيات النبي موسى ﷺ، فإنّ طلب النظر

إلى الله تعالى جاء من قوم موسى ﷺ، فهم الذين قالوا له: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٢)، فليس هو الطالب الحقيقي للنظر، بدليل أنه ﷺ حينما أخذتهم الرجفة قال لله تعالى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^(٣)، فأضاف قضية النظر إلى السفهاء.

أمّا قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾^(٤)، فإنه تعليق على المستحيل؛ لأنّ الاستقرار حال الحركة مستحيل، وبالتالي فالنظر مستحيل.

(١) سورة النمل، الآية ٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٥٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

و- العرش والكرسي

قال تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١)
 ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٢).

تقول العرب: استوى فلان على العرش أي استولى وملك،
 وإن لم يجلس أصلاً على السرير^(٣).

قال الشاعر:

فقد استوى بشرٌ على العراق من غير سيف ودم مہراق
 وعليه، فالاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء على كل
 عالم الخلق والأمر.

ومنه نفهم معنى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٤).

(١) سورة طه، الآية ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٣) أنظر: شمس الدين، محمد، دراسات في العقيدة الإسلامية، (لاط)، (لان)،

(لا،ت)، ص ١٧٣.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

ز- مجيء الله

قال تعالى:

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَأَمْلَأَ صَفًا صَفًا﴾^(١).

المعنى

وجاء أمر ربك أو بأس ربك، بتقدير مضاف محذوف. سلام الله تعالى على أمير المؤمنين عليه السلام الذي ورد أنه قال: «يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملاءمة كيفياته، يا من قرب من خطرات الظنون، وبعد عن لحظات العيون، وعلم بما كان قبل أن يكون»^(٢).

(١) سورة الفجر، الآية ٢٢.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق السيد ابراهيم الميانجي ومحمد الباقر البهبودي، ط ٢، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣م، ج ٨٤، ص ٢٣٩.

ما هو سرُّ الخلق؟

ما هي الحكمة من إيجاد الله تعالى للكائنات؟

إنَّ السؤال عن سرِّ الخلق والحكمة منه يستبطن اعتقاداً بحكمة الخالق. وهذا ما يجب إثباته أولاً قبل الإجابة على السؤال المتقدم.

وبداية الانطلاق هي ما أثبتناه سابقاً من وجود علّة أولى للكائنات، هو واجب الوجود، غني لا يحتاج إلى أيّ شيء.

وهذه العلّة الأولى لعالم الوجود الممكن لها مميّزات

هي:

- ١- إنّها هي الخالقة والموجدة لجميع الكائنات، وهذا منبثق من كونها العلّة الأولى.
- ٢- إنّها تشتمل على جميع كمالات هذه الكائنات؛ لأنّ

يسألونك عن الله

فاقد الشيء لا يعطيه، فكلّ كمال نعرفه في أيّ كائن،
فإنّه موجود في العلة الأولى؛ لأنها هي المانحة له،
فكيف تمنح وتعطي ما تفقده!!

وعليه، بما إنّ الكائنات فيها حياة، فالعلة الأولى حيّة،
وبما أنّ الكائنات فيها قدرة، فالعلة الأولى قادرة، وبما أنّ
الكائنات فيها علم، فالعلة الأولى عالمة.

٣- إنّ الكائنات تحتاج إلى العلة الأولى في أمرين:

أ- في أصل حدوثها ووجودها، فلولا العلة الأولى لما وُجدت.
ب- في استمرارها وبقائها؛ لأنّ الكائنات لم تكن
موجودة- أصلاً-، فوجودها هو من وجود العلة الأولى،
مع ملاحظة أنّ ارتباطها بها ليس كارتباط البناء مع
البناء بحيث يحتاج البناء في حدوثه إلى البناء، فإذا
حدث ووجد، فإنّه لا يرتبط في بقاءه به، فيموت البناء
ويبقى البناء.

بالتأكيد ليست هذه هي العلاقة بين العلة الأولى وسائر
الكائنات؛ لأنّ الكائنات هي لا شيء من دون العلة الأولى،

بل ارتباطها بها - من باب تقريب الفكرة - كارتباط شعاع الشمس بالشمس، فإنَّ حدوث الشعاع مرتبط بالشمس، وبقاء الشعاع مرتبط بها، فلا يمكن أن تفتنى الشمس ويبقى الشعاع، وكارتباط صورة الإنسان في المرآة بوجود الإنسان قبالتها؛ فإنَّ أصل حدوث الصورة مرتبط بوجود الإنسان، وكذلك استمرار الصورة وبقائها مرتبط به أيضاً.

إذاً عالم الوجود يرتبط بالعلّة الأولى في أصل حدوثه ووجوده، وفي استمراره وبقائه.

وهذا يعني أنّ العلة الأولى هي المدير والمدبّر والرّبّ لشؤون عالم الوجود، وبالتالي فهي صاحبة الإفاضات والعتاء والرزق والوجود على عالم الوجود.

لقد استطعنا خلال العرض السابق أن نتعرّف على صفات عديدة لواجب الوجود ونثبتها، وهي أنّه خالق، غنيّ، حيّ، قادر، عالم، ربّ، جواد،... الخ.

بعد هذا التمهيد ندخل في إثبات كون واجب الوجود حكيماً.

الدليل على حكمة العلة الأولى

الحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها المناسبة، بحيث يكون هناك هدف لأي عمل.

وعليه فمن لا يضع الأمور في مواضعها المناسبة، فهو يفعل ذلك إما بسبب حاجة أو عجز أو جهل أو بخل، وقد أثبتنا سابقاً أنّ واجب الوجود، وهو الله تعالى غنيّ، قادر، عالم، جواد، وبالتالي هو حكيم.

بعد هذه المقدمة نطرح السؤال:

ما هي الحكمة من خلق الكائنات؟

والجواب لا بدّ أن يتلاءم مع كون الله تعالى غنياً، ما يعني أنه لا يحتاج إلى الخلق، فخلقه للكائنات لا حاجة منه إليها.

إذاً ما هو الهدف من إيجادها؟

لا بدّ أن يكون الهدف هو مصلحة تعود لنفس الكائنات، وهي ما يمكن أن نعبر عنه بعنوان واحد هو الكمال، بمعنى أن الله تعالى خلق الكائنات لأجل أن تصل إلى كمالها.

وهذا الجواب هو تفسيرٌ للحديث القدسيّ الوارد عن الله تعالى: «كنتُ كنزاً مخفياً، فأحببتُ أن أعرف، فخلقتُ الخلق لكي أعرف»^(١).

إنَّه حبُّ للكمال، وإظهار للكمال، فقد خلق الله الخلق لكي يظهر هذا الكمال.

وظهور الكمال في الخلق على نوعين: قهريّ واختياريّ.

الكمال القهري

ونجده في الجمادات والنباتات والحيوانات.

الكمال في الجمادات

يكفي في معرفته التأمل في حركة الكواكب، فمن باب المثال يقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروباً هذا العدد في ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مليون، في كل مجموعة منها حوالي مئة مليار نجمة.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٨٤، ص١٩٩.

وَأَنَّ الْكَوْنِ يَتَّسِعُ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ كَالْبَالُونِ الْمَطَاطِي (١).
واللافت أن هذا العدد الضخم من الكواكب قد نظمت
حركته بشكل دقيق، إذ يرى علماء الفلك أن مجرات النجوم
يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين
من السيارات المتحركة في مجرة أخرى مثلها تتحرك
سياراتها أيضاً، ثم تخرج منها بسياراتها جميعاً، دون أن
يحدث أي تصادم بين سيارات المجرتين (٢).

وقد عبّر الله تعالى عن هدايته التكوينية للكواكب إلى
كمالها بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ (٣)، أي تم
إبلاغ كل سماء بما تقوم به، وهُديت إلى مسار حركتها (٤).

ولعل من أبهى مشاهد الكمال في الكون ما يظهر من
حركة الأرض حول الشمس بانضباط شديد بحيث لو بعدت
أكثر لتجمّدت الأرض، ولو اقتربت أكثر لاحتترقت، وكذا

(١) خان، وحيد الدين، الإسلام يتحدى، ط٩، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، ص٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سورة فصلت، الآية ١٢.

(٤) المطهري، مرتضى، دراسات عقائدية، ط١، جمعية المعارف الإسلامية

الثقافية، ٢٠١٠م، ص٧٢.

حركة القمر حول الأرض، كل ذلك في ظلّ جاذبيّة مدهشة بين الأجسام والأجرام في الكون.

الكمال في النبات

إنّ المحرّكات الآلية الضخمة ذات قوة ١٠٠ حصان تعجز عن تصعيد الماء إلى مسافة ٢٠ متراً، إلا أنّ الأوراق الرقيقة في الشجرة قادرة على إيصال الماء إلى أعلى من هذه المسافة بقوّتي «الضغط الجذري والشدّ الورقي».

الكمال في الحيوان

ولنأخذ النملة في حديث أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

«ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه، وقلق له السمع والبصر، وسوّى له العظم والبشر^(١). انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها، لا تكاد تُنال بلحظ البصر، ولا بمستدرِك الفكر، كيف دبّت

(١) جمع بشرة وهي ظاهر الجلد الإنساني.

على أرضها، وُصِّبَتْ على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها،
وتُعَدُّها في مستقرِّها، تجمع في حرِّها لبردها، وفي وُرُودها
لصَدْرِها^(١)، مكفولةٌ برزقها، مرزوقةٌ بوفيقها، لا يُغفلها
المنانُ، ولا يَحْرِمُها الديانُ ولو في الصفا اليابس والحجر
الجامس^(٢). ولو فكرت في مجاري أَكْلِها في عُلوها وسُفْلِها،
وما في الجوف من شراسيف بطنها^(٣)، وما في الرأس من
عينها وأذنها، لقضيت من خَلَقِها عجباً، ولَقِيت من وصفِها
تعباً، فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبنّاها على دعائمها،
لم يَشْرِكْهُ في فطرتها فاطرٌ، ولم يُعْنَهُ في خلقها قادرٌ^(٤).

الكَمال بين النبات والحيوان

لقد أثبت العلم الحديث تفاعلاً كمالياً بين النبات
والحيوان ومن لطيف ما ثبت في ذلك ما حدث في الصين

(١) الصدر، محرّكاً، الرجوع بعد الورد. وقوله بوقفها بكسر الواو أي بما يوافقها من الرزق ويلائم طبيعتها.

(٢) الجامس: الجامد.

(٣) الشراسيف: مقاط الأضلاع وهي أطرافها التي تشرف على البطن.

(٤) الإمام علي، نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، تحقيق محمد عبده، ١، قم، دار الذخائر، ج ٢، ص ١١٧.

من اكتشاف دورٍ للطائر المعروف بالدوري في إنقاص حجم محاصيل زرع الأرزّ، مما استدعى تدخلاً من الحكومة الصينيَّة التي دعت إلى إبعاد الدوري عن محاصيل الأرزّ تحت شعار «الدوري عدوُّ الشعب الصيني».

وفعلًا نفذت برامج عديدة أدت إلى ذلك الإبعاد المطلوب، إلا أنّ المفاجأة كانت هي في تدني محاصيل الأرزّ بشكل أكثر بكثير مما كان، وعند دراسة الموضوع ومتابعته، تبين أنّ هناك دودة تأكل من نبتة الأرزّ، وأنّ الدوري كان يأكل تلك الدودة، وهي بإبعاده عن الأرزّ استفردت به، ممّا أدّى إلى النقص الحادّ في إنتاج الأرزّ.

وقد اضطرت الحكومة الصينية من رفع شعار جديد داعية إلى إعادة الدوري إلى محاصيل الأرزّ، وكان هذا الشعار هو: «الدوري صديق الشعب الصيني».

الكمال الاختياري

وأجلى صور هذا الكمال كان في الإنسان الذي ميّزه الله تعالى عن جميع ما سبق بأنّ أراد له أن يسير في طريق كماله

عن اختيار وليس عن قهر واضطرار. قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١).

فإن نجح الإنسان في عبور طريق كماله، فإنه سيكون الكائن الأول عند الله تعالى، بل سيكون أفضل من كل الكائنات حتى الملائكة العظام.

وهذا سرُّ ما ورد عن النبي ﷺ في حديثه عن المعراج: «... فلما انتهيت إلى حجب النور قال لي جبرئيل: تقدّم يا محمد، وتخلّف عني، فقلت: يا جبرئيل، في مثل هذا الموضع تفارقني؟! فقال: يا محمد، إن انتهاء حدّي الذي وضعني الله عزّ وجل فيه إلى هذا المكان، فإن تجاوزته احترقت أجنحتي» (٢).

لأنّ محمداً ﷺ عبر في طريق كمال كما أراد الله تعالى توقّف الملك العظيم جبرئيل في مسيرة الكمال والقرب من الكمال المطلق، وتقدّم محمد ﷺ.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٤٦.

لماذا خلق الله العصاة وهو يعلم ما سيفعلون؟

إنّ هذا السؤال يحمل نفس الخلفيّة التي انطلق منها سؤال الملائكة لله تعالى حينما أخبرهم عزّ وجلّ بمشروع خلق الإنسان، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (١) فقد سألوا -بصورة اعتراض-: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (٢).

إنّ مداخلة الملائكة هذه تتألف من أمرين:

الأول: يتعلّق بالمستقبل الأسود للإنسان الذي فيه إفساد وسفك للدماء.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

الثاني: يتعلق بالمقارنة بين الإنسان المختار الذي سيؤدّي اختياره إلى ذلك المستقبل الأسود، وبين الملائكة المسيّرين في سلوكهم، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(١) وبالتالي هم لا يفعلون إلا الخير، وما يسلكون إلا طريق الكمال.

وقد أجمل الله تعالى بداية الجواب بقوله عزّ وجل: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وهذه الإجابة الابتدائية لم تنطلق من خطأ في سؤال الملائكة، ولا من استنكار لما ذكره من مستقبل الإنسان، ونحن اليوم نعلم بوضوح أنّ الإنسان قد أفسد في الأرض، وسفك الدماء، بل إنّ نظرة سريعة فيما اقترفه ويقترفه الصهاينة وغيرهم يؤكّد ذلك بوضوح تام، ومن هنا نفهم أنّ جواب الملائكة انطلق من أمر آخر هو قصور معرفي؛ لأنهم اقتصروا في نظرتهم إلى

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠.

جزء من لوحة الإنسانية، ولم يطلعوا على كامل اللوحة وتمامها.

ومما يشهد لذلك هو جواب الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

فالمشكلة إذاً هي في سعة العلم ودائرة المعرفة. ولإيضاح الصورة للملائكة أراد الله تعالى أن يُطلع الملائكة على الجزء الآخر من لوحة الإنسان، وعلى الصفحات الأخرى من كتابه الذي اقتصر نظر الملائكة على قراءة الصفحات السوداء منه. لذا ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢).

أسماء من هي؟

إنّها أسماء صفوة البشر، إنّها أسماء الأولياء، إنّها أسماء الحجج، إنّها أسماء من يسلكون درجات الكمال، ومعهم تتكامل الإنسانية.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣١.

وسأل الله تعالى الملائكة ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

التفت الملائكة إلى عجزها وإلى كمال الله تعالى وتنزهه عن كل نقص، وأن كل ما عندها هو منه عز وجل، فقالت: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (٢).

عندها أراد الله تعالى أن يبرز حكمة الخلق والهدف الإلهي الذي سوف يتحقق رغم ذلك الإفساد والسفك للدماء، فطلب من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينبئ الملائكة بهؤلاء الأسماء. وحينما أنبأ آدم الملائكة بالأسماء، تعرّفت على الصفحات المضيئة، والجزء النوراني من لوحة الإنسانية، فترجمت الخضوع لحكمة الله تعالى بهيئة السجود لمن يحمل الأسماء.

من الواضح أن فعل الملائكة لم يكن تعبدياً صرفاً بقرار الله تعالى بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن الله تعالى سلك معها

(١) سورة البقرة، الآية ٣١

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٢.

مسلكاً إقناعياً من خلال تعليم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ للأسماء وعرضها على الملائكة.

ونحن نفهم من طبيعة ما جرى أنّ الله تعالى علمهم أمرين:

الأول: المنهجية الصحيحة في التفكير لأجل الوصول إلى النتيجة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

الثاني: تطبيق المنهجية على خلق آدم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾^(٢).

١- المنهجية الصحيحة للوصول إلى النتيجة

إنّ ما يحسم النتيجة ليس أصل وجود إفساد وسفك دماء ونحوها كما ظنّت الملائكة، بل هو غلبة الإيجابيات على السلبيات.

وهذه الغلبة ليس من الضروري أنّ تكون بالعدد والكم، بل إنّ النوع قد يكون هو الأساس في تقييم النتيجة وإضفاء صفة الصحة عليها.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣١.

ألا نرى لو أنّ شخصاً أراد أن يكسب مئة جوهرة نفيسة جداً، واقتضى ذلك أن يعمل في مصنع للنفايات الكربونية لمدة عشرة أعوام، فإنّ العقلاء إن اطلعوا على واقع حاله، فإنهم يمتدحونه على ما يقوم به رغم الجهد الذي سيصرفه خلال السنوات العشر والمعاناة التي سيتحمّلها فيها، فالجواهر المئة تبرّر وجود معمل نفايات يمتد لمدة طويلة. إنّ النوع في هذا المثال غلب الكم في نظرة العقلاء بشكل واضح.

٢- تطبيق المنهجية على خلق آدم ﷺ

لقد عرف الله تعالى الملائكة أنّ في الوجود البشري جواهر إنسانية تصل إلى ذروة كمالها في خضمّ معمل الدنيا الذي يحتوي نفايات كثيرة رأت الملائكة آثارها الفاسدة، فسألت بصورة اعتراض: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١). وأبرز الله تعالى لها تلك الجواهر النفيسة المبرّرة لوجود مصنع الدنيا بعنوان «الأسماء» وهي

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

تمثّل الصفوة من الناس الذين يسلكون باختيارهم وحريرتهم سبيل التكامل، وبالتالي فهم الذين لأجلهم خلق الله الإنسان.

توسعة دائرة الفائزين

وإكمالاً للإجابة عن السؤال لم يكتف الله تعالى بنجاح الصفوة في امتحان مصنع البشرية، بل وسّع من دائرة الذين يفوزون بسعادة الآخرة، وهذا ما نفهمه من أمور عديدة دلّ العقل على بعضها، ونصّ المعصومون على بعضها الآخر، نعرض منها:

١- عذر القاصر حتى لو كان خاطئاً

إنّ حساب الله تعالى يوم القيامة لا يتمّ على أساس النتائج التي تعني أنّ من لا يكون من أهل الحق فإنّ مصيره المحتوم هو العذاب، بل إنّنا نعتقد أنّ الحساب الإلهي ينطلق من المقدمات التي بنيت عليها العقيدة والتي يلاحظ الله تعالى فيها مدى تقصير أو قصور صاحب العقيدة الخاطئة، فقد يكون الإنسان معتقداً بالباطل، لكنّه لم يقصر في الوصول إلى النتيجة، بل كان قاصراً في ذلك، فلا يصح في هذا أن

يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِأَنْ مَصِيرَهُ هُوَ اسْتِحْقَاقُ الْعَذَابِ.

من هنا استثنى الله تعالى من أطلق عليهم المستضعفين من استحقاق العذاب باعتبارهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ (١).

وقد رفض أهل البيت عليهم السلام ثقافة فرز الناس باعتبار ما يظهر من عقيدتهم وسلوكهم، وهذا ما يظهر جلياً في ما أورده الشيخ الكليني في كتابه الكافي عن زرارة قال:

«دخلت أنا وحرمان - أو أنا وبكير - على أبي جعفر عليه السلام

قال: قلت له: إنا نمد المطمار قال عليه السلام: وما المطمار؟

قلت: التمر، فمن وافقنا من علوي أو غيره توليناه، ومن

خالفنا من علويّ أو غيره برئنا منه. فقال عليه السلام لي: يا زرارة، قول الله أصدق من قولك، فأين الذين قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾^(١)؟! أين المرجون لأمر الله؟! أين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؟! أين أصحاب الأعراف؟! أين المؤلفّة قلوبهم؟!^(٢).

٢- دور الخصائص الإنسانية في نجات الإنسان وإن

كان كافراً

إنّ كون الإنسان كافراً أو مشركاً لا يعني حتمية عذابه في الآخرة، فضلاً عن ما مرّ في مسألة تقصير الإنسان أو قصوره في العقيدة أو المسلك، فإنّ الصفات الإنسانية، وكذا السلوك الإنسانيّ قد يكونان سبباً لنجاة المشرك والكافر، فحاتم الطائي مات مشركاً، لكنّ النبي صلى الله عليه وآله أخبر ابن حاتم عن مصير أبيه بقوله: «رُفِعَ عن أبيك العذاب

(١) سورة النساء، الآية ٩٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تعليق علي أكبر غفاري، ط٤، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ هـ.ش، ج٢، ص٢٨٢.

الشديد بسخاء نفسه»^(١)، وهذا البيان النبويّ انطلق من كون الكرم صفة إنسانية تُعدّ تجلياً للصفات الإلهية، لذا قد يكون لها أثر طيب في آخرة الإنسان. وهكذا سلوك الإنسان المنطلق من إنسانيّته والذي هو نوع من التجليّ الرباني أيضاً، قد يكون سبباً لنجاة من لا يحمل العقيدة الحقّة، بل يحمل ضدّها كفراً أو شركاً، وهذا ما ورد في عدة روايات نعرض منها:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن مؤمناً كان في مملكة جبّار، فوّلح به، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك، فأظلمه، وأرفقه وأضافه، فلمّا حضره الموت أوحى الله عزّ وجلّ إليه: وعزّتي وجلالي، لو كان لك في جنّتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرّمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار، هيديهِ ولا تؤذيهِ، ويؤتى برزقه طرفي النهار»^(٢).

(١) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، (لا،ط)، قم، (لا،ن)، (لا،ت)، ج٧، ص٤٩٢.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص١٨٩.

عن الإمام الكاظم عليه السلام: «كان في بني إسرائيل رجل مؤمن، وكان له جار كافر، فكان يرفق بالمؤمن، ويؤليه المعروف في الدنيا، فلما أن مات الكافر بنى الله له بيتاً في النار من طين، فكان يقيه حرّها، ويأتيه الرزق من غيرها، وقيل له: هذا بما كنت تدخل على جارك المؤمن فلان بن فلان من الرفق وتؤليه من المعروف في الدنيا».

٣- التوبة

فتح الله تعالى باباً للعودة إلى سبيل الكمال، حتى لو حصل انحراف من الإنسان، وذلك بفتح باب الإنابة والتوبة له، بل ضمن الله تعالى قبول التوبة من أولئك الذين يعملون السيئات دون عناد، بل عن طيش وجهالة، فيلتفتون إلى أنفسهم، فيعودون للسير في سبيل تكاملهم، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (١).

(١) سورة النساء، الآية ١٧.

وحتى لا ييأس من تكررته منه المعاصي فتح الله له باب تتكرر قبول التوبة، حتى لو تعددت المعاصي، وقد عبّر تعالى عن ذلك بتعبير لافت حينما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^(١).

٤- الشفاعة

من مات تائباً كان من الفائزين، فالتوبة تجب ما قبلها، وتفتح باب الثواب الإلهي، أمّا من لم يتب، فإنّ هناك باباً آخر فتحه الله تعالى للناس هو باب الشفاعة التي تعني توسط الله تعالى لنبيّ أو وصيّ أو مؤمن ليفيض عزّ وجل عليه المغفرة.

وقد ورد فيها آيات عديدة مؤكدة للشفاعة، وبأنّها من الله تعالى، وليس من شفيع يستقلّ بشفاعته، قال تعالى:

﴿الْأَرْضُ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢).

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٣).

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٨.

(٤) سورة طه، الآية ١٠٩.

وفي الحديث النبوي الشريف: «ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل، فيشفعون الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»^(١).
وعن النبي ﷺ: «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٢).

٥- الرحمة

وإضافة لكل ما مرّ يبقى أمام الإنسان في عالم الآخرة رحمة الله تعالى التي حدثنا الله تعالى عنها في كتابه العزيز بقوله عز وجل:

﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ﴾^(٣).
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٤).
﴿كُنْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٥).
﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾^(٦).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٤٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٢.

(٦) سورة غافر، الآية ٧.

وفي الحديث القدسي المنسوب إلى الله تعالى حول العبد الخاطئ الذي أخفى خطيئته عن الناس:

«عبدى قد ستر ذنبه عن أبناء جنسه؛ لقلّة ثقته بهم، والتجأ إليّ؛ لعلّه يتبعه رحمتي، اشهدوا أنّي قد غفرتها له لثقتي برحمتي، فإذا كان في يوم القيامة، وأوقف للعرض والحساب يقول: عبدى، أنا الذي سترتها عليك في الدنيا، وأنا الذي أسترها عليك اليوم»^(١).

والخلاصة

إنّ الله تعالى خلق الإنسان ليسيّر إلى كماله باختياره، فمن سار كذلك فإنّه يكون قد حقّق غاية خلقه، ومن لم يسر فإنّه يكون قد خالف باختياره، وعليه قد يكون مستحقاً للعقاب، ولكن مع ذلك فتح الله عزّ وجل أبواباً لنجاته ليكون الفائزون في الآخرة من أرقى الكاملين نوعاً، ومن أوسع المرحومين كمّاً.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٥٠.

كيف يتلاءم البلاء مع العدل الإلهي؟

معنى العدل

أولاً، وقبل الإجابة على السؤال لا بدّ من تحديد معنى العدل، فإنّ للعدل معنيين:
الأول: إعطاء كلّ ذي حقّ حقه، أو فقل: رعاية حق الآخر. وهذا يقتضي أن يكون الموجود له حقّ، لتكون رعاية حقّه عدلاً، والاعتداء عليه ظلماً.

الثاني: وضع الشيء في موضعه المناسب، وهو معنى الحكمة.

والله تعالى عادل بالمعنيين، إلا أنّ الملائم للاعتقاد هو المعنى الثاني، باعتبار أنّه لا يوجد حقّ مستقل لأيّ موجود

حتى يتمّ الحديث عن رعايته، وما يعبرُّ عنه بالحقّ، إنّما هو ما جعله الله له حقّاً، فهو حقٌّ من ناحية اعتباره تعالى له حقّاً، وإن كان بالأساس هو من باب التفضّل، فحينما نقول **«اللهم أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد»**، أي بالفضل الذي أنعم الله به على محمّد وآل محمّد، ولكنّه بما أنّه فضلٌ كتبه الله تعالى على نفسه يُعبرُّ عنه بالحقّ.

إذاً المناسب للاعتقاد هو كون العدل بمعنى وضع الشيء في موضعه المناسب، وإن كان الله تعالى عادلاً بالمعنى الأوّل أيضاً.

العدل واعتقاد المسلمين

لا أحد من المسلمين يشكّ في كون الله تعالى عادلاً، فهو عندهم جميعاً لا يظلم، ويضع الأمور في مواضعها المناسبة، إلا أنّ خلافاً أساسياً حصل بينهم في قضية محورية تتعلق بتشخيص العدل الإلهي وهي:

هل العقل الإنساني يدرك حُسن الأشياء والأفعال وقبحها، من دون أن يتدخّل الله تعالى لبيان ذلك، أو أنّه لا يدرك

الحسن والقبح إلا إذا بيّنه الله عزّ وجل، ومن باب التمثيل: هل يدرك العقل البشري بنفسه أن أخذ رغيف خبز من يد يتيم جائع هو قبيح، وأنّ إعادة رغيف الخبز من يد ذلك الغاصب أمر حسن، أو أنّ ذلك يتوقف على إخبار الله تعالى أنّ الأمر الأول قبيح، وأنّ الأمر الثاني حسن، ولولا إخباره تعالى لما أدرك العقل ذلك.

قالت الأشاعرة: إنّ العقل الإنساني بنفسه لا يدرك حسن الأشياء وقبحها، وإنّما الحُسن هو ما حسّنه الله، والقبيح هو ما قبحه الله، فلو أنّ الله تعالى أدخل المؤمن غير العاصي جهنم، وأدخل الكافر الطاغي الجنّة لكان هذا حسناً.

وقالت الشيعة وكذا المعتزلة: إنّ العقل يدرك بنفسه حسن الأشياء والأفعال وقبحها، فمن المستحيل أن يُدخل الله المؤمن غير العاصي نار جهنم؛ لأنّ هذا ظلم، ووضع للشيء في غير موضعه المناسب، ولكنّ هذا لا يعني أنّ العقل -والعياذ بالله- يأمر الله أو ينهاه، بل هو يكتشف تناسب العقل من الكمال الإلهي والحكمة الإلهية، وعدم تناسبه.

من هنا فإنَّ السؤال العقائدي حول ملاءمة البلاء للعدل لا يفيد توجيهه إلى الأشاعرة؛ لأنَّهم مسبقاً لا يسلمون بأنَّ ذلك قبيح، بل هو حسن طالما أنَّ الله تعالى فعله.

بينما يصحُّ أن يتوجَّه السؤال إلى الشيعة، فيقال لهم: كيف تتلاءم البلاءات مع العدل الإلهي؟ فمثلاً:

- كيف تتلاءم الأمراض مع العدل الإلهي؟
- كيف يتلاءم الفقر مع العدل الإلهي؟
- كيف يتلاءم موت العزيز مع العدل الإلهي؟

وهكذا.

المنهجية الصحيحة في النظرة إلى الأشياء:

إنَّ النظرة إلى الأشياء تتمُّ على نحوين:

الأول: أن تنظر إلى الشيء بنفسه عازلاً له عن كلِّ محيطه وبيئته ومشهده.

الثاني: أن تنظر إلى الشيء كجزء من لوحة يرتبط بها، ومشهد يحيط به.

فمن باب المثال: **لو سألتك** عن الأحسن من خطين هما: المستقيم والأعوج، فما هو الجواب؟

قد تُجيب: المستقيم هو الأحسن.

ولكن -بالله عليك- هل هذا الجواب صحيح؟! أو كان عليك أن تنظر إلى اللوحة والبيئة والمشهد الذي فيه ذلك الخطّ، فلو أنّ ذلك الخطّ كان حاجباً فوق عين الإنسان، ترى هل حسنه باستقامته أو باعوجاجه؟

ألم تسمع قول من خاطب حاجب الإنسان:

أيُّها الحاجب المعوج لو كنت جالساً لكنت أعوج
وهكذا لو سألتك:

ما رأيك بقطع يد إنسان، هل هو فعل حسن أو قبيح؟
فهل يصحّ أن تقول مباشرة: هو قبيح بالتأكيد، أو عليك التريث لتتنظر إلى كامل المشهد، فعملٌ أفعى سامة لدغت تلك اليد، وكان بقاؤها سبباً لوصول السُمِّ إلى بقية الجسم، وبالتالي موت صاحبها.

بالله عليك لو أنّ أمّ ذلك الملدوغ علمت بالأمر، وتيقّنت أنّ ولدها سيموت إنّ لم يقطع الطيب يدّه، ألا تتوسّل إليه أن يقطعها؟!

وهكذا نوسألتك:

ما رأيك بنظام إشارات السير التي تدعو إلى الوقوف عند الضوء الأحمر، وبالسماح بالسير عند الضوء الأخضر؟ هل يضرُّ بحسنها أنّها كانت سبباً في تأخُّرك عن اللحاق بالطائرة، وبالتالي عدم السفر؟!

أنا لا أقول: إنّ قطع اليد ليس فيه سلبية، بل فيه ألم كبير، وفقدان لعضو أساسيٍّ يؤثّر على نتاج الإنسان، ويشوّه جماله. ولكن هل من الصحيح أنّ أعدّد سلبيات قطع اليد، فأحكم على قبح قطعها، أو يجب عليّ أن أضع جدولاً فيه السلبيات التي ذكرت، والإيجابيات التي تتمثل بالمحافظة على الحياة، وبالتالي أحكم أيّهما أهمّ: الإيجابيات أو السلبيات؟ وعلى ضوء الدراسة أجيب عن السؤال: هل قطع اليد حسن أو قبيح؟

أنا لا أقول: إنّ نظام إشارات السير كلّه إيجابيات، ولذلك فهو حسن، بل فيه سلبيات قد تكون تأخيراً عن الموعد، وصرفاً أكثر للوقود، ووقوفاً أكثر في حرّ الشمس، ولكن هل

من الصحيح أن اعتمد على هذه السلبيات، فاعتبر أنّ نظام إشارات السير قبيح؟! أو عليّ أن أضع جدولاً للسلبيات، وآخر للإيجابيات، فأدرس أيّهما أهم، وعلى أساس الدراسة أحكم بالحسن أو بالقبح.

إذاً هناك نوعان من النظرة إلى الأشياء:

النوع الأول: أن تنظر إلى الشيء بنفسه، دون ما يتعلّق به من محيطه ومشهده.

النوع الثاني: أن تنظر إليه كجزء من اللوحة والمشهد.

والنوع الأول هو الذي على أساسه سألت الملائكة ربّها

-بصورة اعتراض- على خلق الإنسان: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١).

وقد كان جواب الله تعالى للملائكة بأنّها لم تخطئ في المعلومة حول الإنسان، بل إنّ ما أراد الله تعالى أن يوجّهها إليه هو تبديل نظرتها من النوع الأول إلى النوع الثاني، بأن تنظر إلى كلّ اللوحة، حينها سترى إضافة إلى ما علمت به

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

أنوارَ الأسماء، وستعرف أن المزج في اللوحة بين السواد والبياض سيضفي عليها جمالاً وحُسنًا.

فحالها كمن يرى في منظره الضيق سواداً قاتماً فيعبس لمنظره، فإذا به حينما يوسّع المنظار يرى ذلك السواد خالاً على وجه مليح.

عودة إلى السؤال

بعد إيضاح المنهجية السابقة نطلّ على المفردات التي يُسأل عن ملائمتها مع العدل الإلهي كالأمرض وفقد العزيز والفقر وما شاكل.

فإننا سندرسه على ضوء جدول الإيجابيات والسلبيات. أمّا السلبيات فواضحة، فالمرض يسبّب ألماً، وقد يسبّب إنفاق مال على العلاج والدواء، وتعطيلاً عن العمل الخ. وفقد العزيز يسبّب حزناً عميقاً في النفس، وفقداً للمؤنس، وتعطيلاً عن أمور حياتية، وهكذا، والفقر قد يؤدّي إلى نوع من الشعور بالذلّ، وقلة التمتع بالدنيا، والإرهاق في طلب المعيشة، وما إلى ذلك.

إلا أننا إذا نظرنا إلى دائرة الإيجابيات، فإننا نرى أموراً أخرى من قبيل:

١- المساهمة في بناء الشخصية القوية.

إنَّ البلاء قد يساهم في بناء الشخصية القويّة، وهذا ما يظهر جلياً من خلال دراسة الأشخاص المتفوّقين بين البشر الذين ساهمت معاناتهم والمصاعب التي واجهوها في حياتهم في صناعة شخصياتهم الفدّة.

والإمام عليّ عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة في قوله «ألا وإنَّ الشجرة البرية أصلبُ عوداً، والروائع الخضرة أرقُّ جلوداً»^(١).

فالعالم الناجح لا يصبح كذلك -عادة- إلا بعد دراسة مضنية، والرياضي المتألّق لا يصبح كذلك -عادة- إلا بعد تدريب قاس، حالهما كحال الألماس الذي يتكون من كربون مرّ بضغوطات عالية.

٢- تصويب المسار

إنَّ البلاء يساعد في تصويب مسار الإنسان في حياته،

(١) الإمام عليّ «ع»، نهج البلاغة، ج ٢، ص ٧٠.

فموت العزيز، والمرض، وخسارة المال، قد توقظ من يسير في سكرة الحياة دون التفات إلى سلبياتها. وقد ألفت القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في أكثر من آية.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(٢).

٣- التعويض الأخرى

إن البلاء يعقبه تعويض آخرى يريح المعتقد به، فقد ورد عن النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يُقَالُ لَهَا شَجْرَةُ الْبَلْوَى، يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يُرْفَعُ لَهُمْ دِيْوَانٌ، وَلَا يَنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ، يَصْبُ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًا»^(٣).
 وكتطبيق لذلك التعويض الإلهي الكبير أعطي هذه الأمثلة التي تعرّضت لها الروايات:

(١) سورة الشورى، الآية ٢٧.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥١.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٣٧.

أ- سقوط الجنين

- عن النبي ﷺ: «إني مكاثربكم الأمم، حتى إن السقط ليظل محببناً على باب الجنّة، فيقال له: أدخل الجنّة، فيقول: أنا وأبواي، فيقال: أنت وأبواك»^(١).

ب- موت الولد

ورد أنّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه داود ﷺ حينما مات ولده وقد حزن عليه: «ما يعدل هذا الولد عندك؟» قال ﷺ: كان يا ربّ يعدل عندي ملء الأرض ذهباً، فأوحى الله تعالى إليه: «فلك عندي يوم القيامة ملء الأرض ثواباً»^(٢).

- وورد أنّ النبي ﷺ قال لصاحبه ابن مضعون، وقد مات ولده واشتدّ حزنه عليه: «يا ابن مضعون، إنّ للجنة ثمانية أبواب، وللنار سبعة أبواب، أفما يسرُّك أن لا تأتي باباً إلا وجدت ابنك إلى جنبه، آخذاً بحجزتك يستشفع لك إلى ربّك، حتى يشفّعه الله تعالى»^(٣).

(١) الشهيد الثاني، مسكن الفؤاد، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت «ع» لإحياء التراث، ط١، قم، ١٤٠٧ هـ، ص ٥.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٢١.

(٣) الشهيد الثاني، مسكن الفؤاد، ص ٢٠.

- وورد عن النبي ﷺ: «من قدم من صلبه ولداً لم يبلغ الحنث كان أفضل من أن يخلف من بعده مائة كلهم يجاهدون في سبيل الله عز وجل، لا تسكن روعتهم إلى يوم القيامة»^(١).

ج- مرض الجسم

عن الرسول الأكرم ﷺ: «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمله، يُبتلى ببلاء في جسمه، فيبلغها بذلك»^(٢).
إنَّ صاحب البلاءات حينما يتأمل هذه النصوص الدينيّة سيشعر بمزيج من الألم واللذة كحالة مسافر كان في بلد بعيد، وأراد أن يرجع إلى أهله في لبنان، ورحلته تقتضي أن تحطّ الطائرة في مطار باريس «ترانزيت» لينتظر فيه ثلاث ساعات، ثم تقلع بعدها الطائرة.

وكان هذا الرجل قد أبلغ أهله بموعد الطائرة حيث سيكونون في مطار بيروت عند الموعد المحدد. إلا أن طارئاً حدث في مطار باريس اضطرّ الراكب أن ينتظر فيه عشر

(١) الميرزا النوري، حسين، مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت «ع» لإحياء التراث، ط٢، بيروت، ١٤٠٨ هـ، ج٢، ص٣٩٢.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٨، ص١٧٤.

ساعات إضافية، كيف ستكون حالته النفسية؟
لا شكَّ أن كثيراً من الناس يصيبهم ضيق الصدر والكدر
والحزن على ذلك، ولكن لو أن هذا المسافر أبلغ بشكل
يقيني قبل أن يحدث ذلك الطارئ أن كل ساعة سيتأخرها
في مطار باريس سيُعطى له تعويض قيمته ٥٠,٠٠٠ يورو،
كيف ستكون حالته حينئذ؟

لا شكَّ أن هذا الإنسان -في أغلب الحالات- ستتغير حالته
المعنوية، وهو حينما يفكر في تأخير كل ساعة ومضاعفاته
سيغمره شعور بالرضا على التأخير، بل الفرح؛ لأن رصيده
المالي يزيد ٥٠,٠٠٠ يورو.

ولو أن هذا المسافر أبلغ يقينياً أنه إذا تعرّض في فترة
التأخير إلى ضربة كفّ، فإنه سيعوّض عليه ١٠٠,٠٠٠ يورو
على كل ضربة.

فإذا ضرب هذا الإنسان، فإنه سيشعر بالألم، لكنه حينما
يفكر بزيادة رصيده المالي مئة ألف يورو سيشعر أيضاً باللذة.
بل قد يشعر شعور الأولياء الذين يفهمون البلاء رسالة حبّ

من الله تعالى، كحال ذلك العالم الذي لم يُرزق بولد، فأخذ يدعو الله تعالى طويلاً حتى رزقه بولد ملاً حياته سعادة وسروراً، وتعلق قلبه به تعلقاً كبيراً، وذات يوم - حينما كان يعظ الناس - جاءه خبر وفاة ولده الوحيد، فأكمل موعظته بدون أن يبدو عليه الحزن المتوقع، وبعدها طلب من الناس أن يشاركوه في تشييع ولده.

سأله أحدهم: إني أعلم أنك تعشق ولدك، فلم لم يبدُ

عليك آثار الحزن على فقده؟

فأجابه: «حينما جاءني خبر وفاته، خطر في قلبي بأنَّ

الله تعالى علم أن قلبي تعلق بحبِّ غيره، فتوفاه تعالى

حتى لا يسكن قلبي إلا حبه، فرضيت».

إنَّ ما تقدّم يوضح كلمة بعض العرفاء بأن الفرق بين

العذاب والعذب ألف لا تُقرأ.

إنَّ التأمل في هذا الوجود حينما تتعلّق النظرة بلوحته

الكاملة يدعو إلى تنزيه الحكيم وتسبيحه.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.

هل الإنسان مسيرٌ أو مُخيّرٌ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي التأكيد على أنّ من الواضح كون الإنسان مجبراً وليس مخيّرًا في بعض ما فيه، فإنّه ليس مخيّرًا في جريان الدم في عروقه، وفي حركة الكريات البيض لتسوية جروحه، وهو لم يختَر بنفسه أصل طوله وشكله ولونه، إنّ السؤال ليس عن هذه الأمور حتماً، فليس من عاقل يحتمل أنّ الإنسان مخيّر في أصل تلك الأمور. إنّما السؤال هو عن أفعاله التي يصدرها في حياته بنفسه انطلاقاً من إرادته، فهل هو مخيّرٌ وحرٌّ في هذه الأفعال، أو هو مسيرٌ فيها ومجبرٌ عليها؟

الاتجاهات الثلاثة

هناك ثلاثة اتجاهات أساسية أجب بها المسلمون:

الاتجاه (١): الجبر

هناك فئة عرفت في تاريخ المسلمين بالمجبرة أجابت بجواب احتضنته فرقة الأشاعرة في مراحلها الأولى، وهو أنّ الإنسان مجبر على فعله، مسير فيه، ليس له حرية في ذلك. وقد تبنت المجبرة هذا الاتجاه بسبب اعتقادها وإيمانها بتوحيد الله تعالى، وبأنّه عز وجل هو الفاعل لكلّ شيء، والمؤثر في كل موجود، وعليه فإنّ قلنا: إنّ فاعل الفعل الإنساني هو الإنسان نفسه، وليس الله، لأدّى ذلك إلى إيجاد شريك لله تعالى عند ذلك؛ إذ يصبح الله فاعلاً، والإنسان فاعلاً آخر، وهذا شرك واضح.

من هنا قالوا: إنّ فعل الإنسان هو فعل لله، وإنّ الإنسان مجبر على كل أفعاله.

وقد استدلت المجبرة على عقيدتها هذه بآيات قرآنية نعرض منها:

١- ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا

فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿١﴾ .

٢- ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ
لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ
لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ
لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴿٢﴾ .

٣- ﴿فِيضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٣﴾ .

٤- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ
الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ .

٥- ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٥﴾ .

(١) سورة الحديد، الآية ٢٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

(٥) سورة الطلاق، الآية ٣.

وقد كان لعقيدة الجبر آثار حسّاسة على المستوى الاجتماعيّ والفرديّ، فقد اعتمد الأمويون هذه العقيدة ليبرّروا بها حكمهم وظلمهم للناس، كما أنّ أفراداً أصابهم اليأس من التغيير انطلاقاً من عقيدة الجبر، كما يظهر ذلك من قول الشاعر الجبريّ:

إنّ حظّي كدقيق بين شوّكٍ نثروه
ثم قالوا لحفاة يوم ريح: أجمعه
عبثاً حاولوا جمعه قال قوم: اتركوه
إنّ من أشقاه ربي كيف أنتم تسعدوه!

الاتجاه (٢): التفويض

مقابل المجبّرة التزمت فرقة المعتزلة بكون الإنسان حرّاً في أفعاله، ليس مسيّراً فيها ومجبّراً عليها، وقد انطلق هؤلاء في عقيدتهم هذه من إيمانهم بعدل الله تعالى، إذ قالوا: لو كان الإنسان مجبّراً على فعله فلا يجوز لله تعالى أن يعذّبه على المعصية، إذ كيف يجبره على فعل المعاصي والآثام، ثم يعذّبه على ارتكابها.

من هنا قالوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ أَعْمَالَهُ بِحَيْثُ لَا عِلَاقَةَ لِلَّهِ تَعَالَى بِحُصُولِهَا، فَلَا يَتَحَمَّلُ سَبْحَانَهُ تَوَابِعَهَا، إِنَّمَا يَنْفَرِدُ الْإِنْسَانُ فِي تَحَمُّلِ مَسْئُولِيَّةِ مَا يَقُومُ بِهِ.

وقد استدلَّت المعتزلة على عقيدتها هذه بآيات قرآنية أيضاً، نعرض منها:

- ١- ﴿اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).
- ٢- ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).
- ٣- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٣).
- ٤- ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٤).
- ٥- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(٥).

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٠.

(٣) سورة الإنسان، الآية ٣.

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٩.

(٥) سورة الروم، الآية ٤١.

بين الاتجاهين

من الملاحظ أنّ المنطلق الذي اعتمد عليه كلٌّ من الفريقين صحيح بنفسه، فإنّ الله تعالى هو خالق كلِّ شيء، ولا يمكن أن يكون غيره خالقاً مستقلاً، وكذا فإنّ الله تعالى عادل لا يمكن أن يظلم إنساناً، وبالتالي فلا يمكن أن يعذب على فعل أجبر الإنسان عليه.

من هنا تشبَّث كلُّ فريق بعقيدته متّهماً على الآخر فيما يعتقد. ومن لطيف ما ورد في ذلك أنّ غيلان الدمشقي المعتقد بالاختيار التقى ربّيعة الرأي المعتقد بالجبر، فجرى بينهما الحوار الآتي:

غيلان: أنت الذي يزعم أنّ الله يحب أن يعصي.

ربّيعة: أنت الذي يزعم أنّ الله يُعصى قهراً^(١).

وفي حوار آخر بين القاضي عبد الجبار المعتزلي (الاختياريّ) وأبي اسحاق الفراييني (الجبريّ) كان الآتي:

(١) المطهري، مرتضى، الإنسان والقضاء والقدر، ترجمة محمد علي التسخيري، ط٣،

بيروت، دار التعاون، ١٩٨٧، ص٦٩.

المعتزلي: «سبحان من تنزهه عن الفحشاء».

باعتبار أن المجبرة ينسبون كل شيء إلى الله، ولازمه إتصافه تعالى بالأعمال الفاحشة.

الضراييني: «سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء».

باعتبار أن عقيدة المفوضة تؤدي إلى وجود ما لا يريده الله من الأفعال^(١).

الاتجاه (٣): أمر بين أمرين

سلمت الشيعة الإمامية أن الاعتقاد بالجبر يؤدي إلى نسبة الظلم إلى الله تعالى، وأن الاعتقاد بالتفويض يؤدي إلى نوع من الشرك، لذا رفض الشيعة كلاً من الجبر والتفويض، وقالوا بقول ثالث عبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين»^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤، ص١٩٧.

وقد انطلق الشيعة في عقيدتهم هذه من أمرين مسلمين:

المسألة الأولى: وحدانية الله

فمن المقطوع والمسلم به، وما قام عليه الدليل العقلي الذي لا شك فيه هو أنّ الله تعالى هو وحده خالق كل شيء، والمؤثر في كل شيء، فلا خالق ولا مؤثر غيره.

وقد تقدّم في الإجابة عن السؤال الثاني (كيف نتصور الله؟) بأنّ علاقة كل الكائنات وعالم الوجود الإمكانى هي علاقة المحتاج إلى الله في أصل وجوده وفي بقاءه، بحيث لا يتحقّق وجود، ولا بقاء من دونه تعالى.

وعليه فلا يمكن أن نقول: هذا الفعل هو للإنسان، وليس لله تعالى.

المسألة الثانية: حرية الإنسان

فمن المقطوع به وجداناً أنّ الإنسان حرٌّ في أفعاله، يقوم متى يريد، ويتحدّث متى يختار، ويحرّك يده متى يشاء، ولا يشعر أنّه هناك من يتحكم بتصرفاته وأفعاله، فيسيّره كما يشاء دون إرادة واختيار منه، إنّ هذا من البديهيات

الوجدانية التي لا يمكن للإنسان العاقل أن ينكره أو يشك فيه.

وعليه فلا يمكن أن نقول: إنَّ الإنسان مجبر على أفعاله.

والسؤال: كيف نجمع بين هاتين المسلّمتين:

١- كون الفعل هو لله تعالى.

٢- كون الإنسان حرّاً في فعله.

الحلّ في الصورة وليس في الدليل

إنّ الحلّ ليس بتقديم دليل، بل هو بتقديم صورة تجمع بين المسلّمتين، دون تضارب بينهما، وهذا هو المراد لإطار الجواب الذي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام «بل أمر بين أمرين»، فهو عليه السلام فتح نافذة للصورة التي يجب أن تراعي مسلّمتي الوجدانية والحرية أو فقل: الوجدانية والعدالة الإلهيتين.

فما هي تلك الصور الصحيحة الملائمة للمسلّمتين الأنفتين؟

طرح بعض العلماء لمقاربة «بل أمر بين أمرين» الصورة

الآتية: لو أنّ مريضاً شُلتَّ يده، فاستطاع طبيب أن يزودها بجهاز كهربائي، بحيث يستطيع المريض أن يحركها حينما يزود بالطاقة الكهربائية.

وفعلاً كبس الطبيب زرّ الكهرباء التي وصلت إلى يد المريض، فاستطاع أن يحركها، إلا أنّ أمراً سيئاً حدث، ألا هو أنّ المريض أمسك بتلك اليد سكيناً، وطعن بها الممرضة.

السؤال: من هو السبب في طعن الممرضة؟

هل هو المريض الذي باشر الطعن، أو الطبيب الذي أوصل الكهرباء؟

إن قلت: إنه المريض؛ لأنه المباشر للطعن باختياره، لكان الجواب: هذا صحيح نسبياً، إلا أنّ الطبيب لو لم يوصل الكهرباء لما حدث ما حدث.

إن قلت: إنه الطبيب؛ لأنه هو الذي أوصل الكهرباء، لكان الجواب: هذا صحيح نسبياً، إلا أنّ المريض لو لم يطعن باختياره لما حدث ما حدث.

إِذَا مَنْ هُوَ السَّبَبُ؟

إِنَّ السَّبَبَ هُوَ الْمَرِيضُ؛ لِأَنَّهُ طَعَنَ، وَهُوَ الطَّبِيبُ؛ لِأَنَّهُ أَوْصَلَ الْكَهْرِبَاءَ.

إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ فَرْقاً بَيْنَ السُّؤَالِ عَنِ السَّبَبِ، وَالسُّؤَالِ عَمَّنْ يَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ، فَكُلٌّ مِنَ الْمَرِيضِ وَالطَّبِيبِ هُوَ سَبَبٌ، إِلَّا أَنَّ الْمَرِيضَ هُوَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ دُونَ الطَّبِيبِ.

وَهَذَا التَّصْوِيرُ، وَإِنْ كَانَ وَاضِحاً إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يُوْهَمُ غَيْرَ الْمَقْصُودِ مِنْ نَاحِيَةِ كَوْنِ الطَّبِيبِ وَالْمَرِيضِ عِلَّتَيْنِ فِي عَرْضِ بَعْضِهِمَا، وَالْمُنَاسِبُ فِي التَّصْوِيرِ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّتَانِ طَوَلِيَّتَيْنِ بِشَكْلِ وَاضِحٍ، لَذَا أُنْتَقَلَ إِلَى بَيَانِ التَّصْوِيرِ الدَّقِيقِ لِلْأَمْرِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

الصورة الدقيقة للأمرين

إِنَّ وَجُودَ عِدَّةِ عِلَلٍ مُؤَثِّرَةٍ فِي مَعْلُولٍ مَا لَهُ أَرْبَعَةُ صُورٍ هِيَ:

١- **التعاون:** بِمَعْنَى أَنْ تَوَثَّرَ الْعِلَلُ مَعاً، بِحَيْثُ لَا يَتَحَقَّقُ

الْمَعْلُولُ إِلَّا بِانْضِمَامِ كُلِّ عِلَّةٍ مِنْهَا إِلَى الْعِلَلِ الْأُخْرَى، وَمِثَالُهُ:

إِنَّ تَحَقُّقَ النَّبْتَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَجْمُوعِ عِلَلٍ مَجْتَمِعَةٍ وَهِيَ الْبَذْرَةُ

وَالْمَاءُ وَالْحَرَارَةُ وَالْهَوَاءُ.

٢- التناوب: بمعنى بأن المعلول يتحقق من خلال أكثر من علّة، لكن لا باجتماعها، بل العلة الأولى تكون وحدها، ثم تتوقف ليبقى المعلول مع العلة الثانية وحدها وهكذا. ومثاله: حركة الطائرة من خلال المحرّك الأول الذي يتوقف لتستمرّ حركة الطائرة من خلال المحرّك الثاني، فهذا التناوب هو الذي يؤدي إلى استمرار حركة الطائرة.

٣- الترتيب بالتأثير: بحيث يكون تأثير العلة مترتباً على تأثرها بالعلّة السابقة، ومثالها تصادم الكرات الرياضية في لعبة البولينغ، فإنّ سقوط الواحدة منها يتأثر بسقوط التي قبلها، وسقوط التي قبلها يتأثر بسقوط السابقة عليها وهكذا، وهذا أيضاً ما نلاحظه في تأثير إرادة الإنسان في حركة اليد، وتأثير اليد في حركة القلم، وتأثير القلم في وجود الكتابة.

٤- الترتيب بالوجود: بحيث يكون وجود كل منها مرتبباً بوجود الآخر، بخلاف ما سبق، فإنّ وجود القلم غير متوقف على وجود اليد.

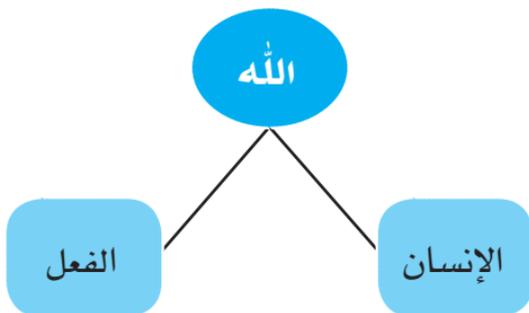
بينما هنا يكون وجود المعلول متوقفاً على وجود العلة، بحيث لا يوجد المعلول أصلاً إلا من خلال العلة. وهذا ما ينطبق على فعل الإنسان والله تعالى.

فوجود فعل الإنسان مرتبط بوجود الإنسان، ووجود الإنسان مرتبط بوجود الله، بحيث يكون فعل الإنسان المرتبط بوجوده مرتبط بوجود الله تعالى، فالله تعالى هو خالق الإنسان، وهو أيضاً خالق فعل الإنسان الذي صدر باختياره، بحيث يكون الإنسان وفعله الصادر باختياره قائمين بالله تعالى.

وعليه فالفعل هو للإنسان؛ لأنه صدر باختياره، وبالتالي هو يتحمل المسؤولية، والفعل مع الإنسان علتها الله عز وجل، لكن الفعل متعلق بالله في طول صدوره من الإنسان المختار، لذلك هو فعل لله، إلا أن الذي يتحمل المسؤولية هو الإنسان المختار.

رسوم توضيحية

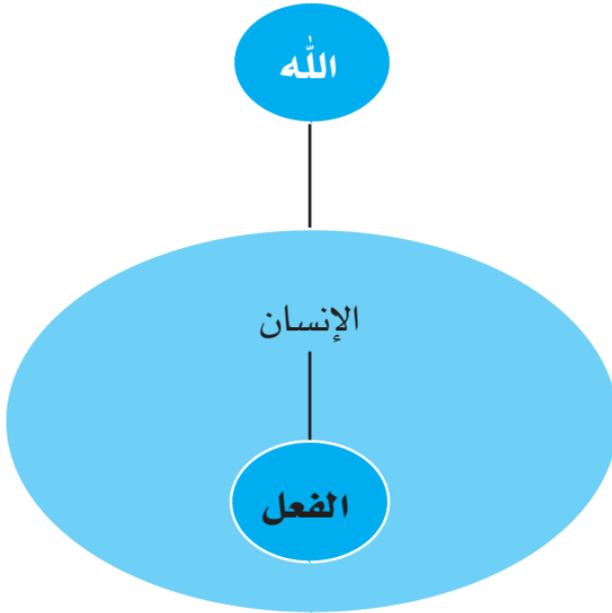
الاتجاه الأول: الجبر



الاتجاه الثاني: التفويض



الاتجاه الثالث: الأمر بين الأمرين



ما هي حقيقة البداء؟

ما هو ردّ الشيعة على من يتهمهم بالاعتقاد بأنّ الله يغيّر رأيه، وهو ما يصطلحون عليه بالبداء؟

علم الله تعالى

نبتدئ الجواب ببيان اعتقاد الشيعة بعلم الله تعالى، فهم يعتقدون أنّ الله عزّ وجلّ كمال مطلق، فهو عالم لا جهل في ساحة قدسه. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١).
 ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
 الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي

(١) سورة آل عمران، الآية، ٥.

ظَلَمْتَ الْأَرْضَ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ .
 ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمًا﴾ ﴿٢﴾ .

وعن الإمام علي عليه السلام : «لا يعزب عنه عدد قطر الماء،
 ولا نجوم السماء، ولا سوافي الرياح في الهواء، ولا دبيب
 النمل على الصفا، ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء . يعلم
 مساقط الأوراق وخفي طرف الأحداق» ﴿٣﴾ .

وعن الإمام الباقر عليه السلام : «إن الله نور لا ظلمة فيه،
 وعلم لا جهل فيه، وحياة لا موت فيه» ﴿٤﴾ .

وعن الإمام الكاظم عليه السلام : «ولم يزل الله عالماً بالأشياء
 قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعدما ما خلق
 الأشياء» ﴿٥﴾ .

(١) سورة الانعام، الآية، ٥٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية، ٥٤.

(٣) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج ٢، ص ٩٨.

(٤) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، تحقيق هاشم الطهراني، قم، (لا، ت)، ص ١٢٨.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤٥.

روايات البداء وتهمة الشيعة

مع كلّ الوضوح فيما ورد في القرآن الكريم وعن النبيّ الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام أنّهم الشيعة تاريخياً بأنهم يقولون -والعياذ بالله-: إنّ الله يغيّر رأيه، فينتقل من جهل إلى علم. وهم يرجعون اتهامهم هذا إلى روايات وردت عن أهل البيت عليهم السلام تحت عنوان «البداء» مثل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

- «ما عبد الله بمثل البداء»^(١).
- «ما عظم الله عزّ وجلّ بمثل البداء»^(٢).
- «ما تنبأ نبيّ قط حتى يقرّ الله بخمس: بالبداء والمشية...»^(٣).
- «ما بعث الله نبياً قط إلا بتحريم الخمر وأن يقرّ له بالبداء»^(٤).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٢٢.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، ص ٢٢٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢٤.

- «لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه»^(١).

من القطعيّ المحسوم في مذهب أهل البيت عليهم السلام أنه لا يراد من البداء أنّ الله تعالى يبدو ويظهر له شيء بعد جهل، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «من زعم أنّ الله تعالى بدا له في شيء بداء ندامة، فهو عندنا كافر بالله العظيم»^(٢).

لكن ماذا يُراد من البداء الذي له هذه المنزلة العظيمة؟ إنّ الجواب مرتبط بعقيدة الشيعة بالقضاء والقدر، فهم يؤمنون بأنّ الله تعالى قدّر الأمور وهندسها من بدايتها إلى نهايتها، وتشمل هذه الأمور كلّ الخلق حتى أعمال الناس، فالله قدّر كلّ شيء.

فقد قدّر الله عزّ وجلّ أن تسير الأرض حول الشمس، والقمر حول الأرض، وأن يتعاقب الليل والنهار. وقدّر تعالى أن يعيش آدم عليه السلام ما عاش، وأن أعيش أنا،

(١) الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٤٨.

(٢) المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، تحقيق الميرزا أبو الحسن الشعراي، ط ١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ، ج ٦ ص ٨٩.

وأن تعيش أنت من سنة كذا، من شهر كذا، من يوم كذا، في الساعة كذا، إلى سنة وشهر ويوم وساعة وثانية كذا.

لكن مع هذا الإيمان يأتي سؤال مهم هو:

هل هذا القدر حاكم على إرادة الله تعالى؟

١- جواب المجبّرة:

نعم؛ استناداً إلى بعض الروايات، منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة، عن النبي الأعظم ﷺ: «جَفَّ القلم بما أنت لاق»^(١). ويشرح النووي هذا الحديث: «ويقول الملك الموكل بالنطفة: «يا ربّ، أشقيّ أو سعيد؟ فيكتبان... ويكتب عمله وأثره، وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد فيها، ولا ينقص»^(٢).

وفي صحيح البخاري: «احتج آدم ﷺ وموسى ﷺ فقال له موسى ﷺ: يا آدم، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم ﷺ: يا موسى، اصطفاك الله

(١) السبحاني، جعفر، الإلهيات، (لا،ط)، (لا،ن)، (لا،ت)، ص ٥٤٩.

(٢) النووي، شرح مسلم، (لا،ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج ١٦، ص ١٩٣.

بكلامه، وخطَّ لك بيده، أتلومني على أمرٍ قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة»^(١).

وعن عمران بن حصين: قال رجل: «يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «نعم»، قال: «فلم يعمل العاملون»؟!^(٢)

قال ﷺ: «كلُّ يعمل لما خُلِقَ له أو لما يسَّرَ له»^(٣).

هذا السؤال الجريء هو إشكال أساسي في هذه القضية؛ لأنَّ الإيمان بالجبر يوجب اليأس من تغيير الفرد والمجتمع. من هنا كان الأمويون كما ذكر سابقاً، ينشرون هذه العقيدة، ليبرروا حكمهم وظلمهم، وحينما كان الناس يرجعون إلى معاوية أو أعوانه في الضيق الاقتصادي كانوا يتلون قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(٤).

(١) البخاري، صحيح البخاري، (لا،ت)، (لا،ط)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، ج٧، ص٢١٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢١٠.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) سورة الحجر، الآية ٢١

ومن لطيف ما ورد في الردّ على هذا المنطق هو ما قام به أحنف بين قيس حينما أجاب هؤلاء بقوله: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رِزْقَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْعَدْلِ، وَلَكِنْ حُلْتُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَرْزَاقِهِمْ».

نرجع إلى السؤال: هل القدر حاكم على إرادة الله تعالى؟

٢- جواب الشيعة:

لا؛ استناداً إلى العديد من الآيات القرآنية والروايات الشريفة، فمن الآيات قوله تعالى:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّطُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿١﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿٢﴾

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٢﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤﴾

(١) سورة الرعد، الآية ٣٩.

(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

(٣) سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (١).

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢).

ومن الروايات الدالة على ذلك، والواردة من طرق

الشيعة :

عن الرسول الأكرم ﷺ: «الصدقة باليد تدفع ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء» (٣).

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أكثرُوا الاستغفار تجلبوا الرزق» (٤).

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْنَبُ، فَيُحْرَمُ بِذَنْبِهِ الرِّزْقَ» (٥).

(١) سورة الطلاق، الآيتان ٢-٣.

(٢) سورة الصافات، الآية ١٤٣-١٤٤.

(٣) الكليني، الكافي، ج ٤، ص ٣.

(٤) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٢٧٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٨٨.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسئ في الأجل»^(١).

ومن الروايات الدالة على ذلك، والواردة من طرق أهل السنة:

عن ابن عباس: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر»^(٢).

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(٣).

ومن الواضح أنّ أهل السنة إن التزموا هذه الروايات، فإنّهم يكونون متفقين مع الشيعة، في حقيقة البداء، ويكون الخلاف لفظياً فقط.

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٥٠.

(٢) السيوطي، جلال الدين، ج٤، ص ٦٦.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، (لاط)، تحقيق بكري حياني، بيروت، مؤسسة الرسالة،

١٤٠٩هـ، ج٢، ص ٦٧.

الخلاصة

خلاصة ما يُفهم من الآيات والنصوص الشريفة أن الله تعالى هندس مصير الإنسان بهندسة لم يغلق باب التغيير بها، بل أبقى للإنسان هامشاً أن يفعل ما يستنزله من خلاله تبديلاً في المصير، ففي الهندسة المبدئية قد يكون عمره ٤٠ سنة، ولكنه إن تصدق قد يطيل الله تعالى في عمره ١٠ سنين إضافية، وهكذا يبقى عند الإنسان أملاً بتغيير مستقبله ومصيره بقدرة الله تعالى وإرادته. وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حينما قام من جانب حائط يكاد أن يسقط، فسأله البعض: أتفر من قضاء الله؟ فأجاب عليه السلام: «أفر من قضاء الله إلى قدره»^(١).

وهذا ما يعبر عنه بالاصطلاح العقائدي بالقضاء المخروم، مقابل القضاء المحتوم الذي لا يمكن للإنسان أن يفعل ما يستوجب تغييره.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٥٦، ص ٣.

إنَّ الإيمان بهذا الهامش التغييريّ من قِبَل الإنسان بإرادته تعالى هو الذي يُسمّى بعقيدة البداء.

ومن الواضح أنَّ من لا يؤمن بهذا الهامش من إمكانية تغيير الإنسان نفسه والمجتمع يعيش حالة يأس من تبديل حاله، وتطوير نفسه، وترقية المجتمع ممّا قد يدفعه إلى الخمول، بل إلى المسير في سبيل الشر طالما أنَّ كل ذلك مقدرٌ من الله تعالى تقديراً قد جفَّ القلم عنه. من هنا قال الإمام الصادق عليه السلام - كما سبق - : «ما عظم الله عزَّ وجلَّ بمثل البداء»^(١).

قصة لطيفة في البداء

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بينما داود على نبينا وآله و عليه السلام جالس وعنده شاب رثَّ الهيئة يكثر الجلوس عنده، ويطيل الصمت، إذ أتاه ملك الموت فسلم عليه، وأحدَّ ملك الموت النظر إلى الشاب، فقال داود على نبينا وآله و عليه السلام : نظرت إلى هذا؟ فقال: نعم، إنني أمرت

(١) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، ص ٢٢٢.

بقبض روحه إلى سبعة أيام في هذا الموضع، فرحمه داود عليه السلام فقال: يا شاب، هل لك امرأة؟ قال: لا، وما تزوجت قط. قال داود عليه السلام: فأت فلاناً (رجلاً كان عظيم القدر في بني إسرائيل) فقل له: إن داود عليه السلام يأمرك أن تزوجني ابنتك، وتدخلها الليلة، وخذ من النفقة ما تحتاج إليه، وكن عندها، فإذا مضت سبعة أيام فوافني في هذا الموضع. فمضى الشاب برسالة داود على نبينا وآله و عليه السلام، فزوجه الرجل ابنته، وأدخلوها عليه، وأقام عندها سبعة أيام، ثم وافى داود عليه السلام يوم الثامن، فقال له داود عليه السلام: يا شاب، كيف رأيت ما كنت فيه؟ قال: ما كنت في نعمة ولا سرور قط أعظم مما كنت فيه، قال داود عليه السلام: اجلس، فجلس، وداود عليه السلام ينتظر أن يقبض روحه، فلما طال قال عليه السلام: انصرف إلى منزلك، فكن مع أهلك، فإذا كان يوم الثامن فوافني ههنا، فمضى الشاب، ثم وافاه يوم الثامن، وجلس عنده، ثم انصرف أسبوعاً آخر، ثم أتاه وجلس، فجاء ملك الموت داود عليه السلام، فقال

داود صلوات الله عليه: ألتست حدثتني بأنك أمرت بقبض روح هذا الشاب إلى سبعة أيام؟ قال: بلى، فقال عليه السلام: قد مضت ثمانية وثمانية وثمانية! قال: يا داود، إن الله تعالى رحمه برحمتك له فأخر في أجله ثلاثين سنة»^(١).

استفادات مما سبق

أ- إن عقيدة البداء بالمعنى المتقدم صرحت بها روايات أهل السنة كما روايات الشيعة، إلا أن الاعتراض الوارد من بعض أهل السنة على الشيعة هو على ما فهموه من معنى البداء، وليس على ما يعتقده الشيعة.

ب- إن مصطلح البداء عند الشيعة لا يُراد منه أن الله تعالى يبدو له شيء كان خافياً عنه؛ فإن هذا مخالف لعقيدتهم في علم الله تعالى المطلق، بل المراد منه المعنى المتقدم.

ج- إن سبب اختيار مصطلح البداء دون غيره هو نظير اختيار القرآن الكريم لمصطلح المكر والكيد،

(١) المصدر السابق، ج٤، ص ١١٢.

وَإِطْلَاقَهُمَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ
 الْمَكْرِيْنَ﴾^(١)، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾^(١٥) وَأَكِيدُ
 كَيْدًا^(٢).

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْكَيدِ الْمَعْنِيِّينَ
 السَّلْبِيِّينَ الْمُنْسَبِقِينَ إِلَى أَذْهَانِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ
 الصِّفَاتِ حِينَمَا تُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ مِنْ «تَعْشِيْبِهَا»
 مِنَ الْجَوَانِبِ السَّلْبِيَّةِ، وَإِطْلَاقُهَا بِالْمُضْمُونِ الْكِمَالِيِّ الَّذِي
 تَحْمَلُهُ، وَهَكَذَا هُوَ حَالُ مِصْطَلَحِ الْبِدَاءِ.

(١) سورة آل عمران الآية ٥٤.

(٢) سورة الطارق، الآيتان ١٥-١٦.

ما هي حقيقة عالم الذرّ؟

إنّ المنشأ الأول للكلام عن عالم الذرّ هو الآية القرآنية الشريفة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(١).

وقد وردت روايات عديدة في إطار تفسير هذه الآية تتحدث عن عالم الذرّ الذي ورد أيضاً الحديث عنه في تفسير آيات أخرى، أو بشكل مستقل، بحيث إنّ مجموع هذه الروايات تصل إلى حدّ التواتر.

ومن هذه الروايات ما رواه الشيخ الصدوق بسند معتبر يصل إلى الإمام الباقر عليه السلام بأنّ زرارة سأله عن قول الله

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

«إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ» فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثبتت المعرفة في قلوبهم، ونسوا الموقف، وسيذكرونه يوماً ما، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه، ولا من رازقه»^(١).

ومنها: ما رواه الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أبا بصير سأله: «كيف أجابوا وهم ذر؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه...»^(٢).

معنى الذرّ

في كتاب العين، «الذَرُّ صغار النمل»^(٣)، وفي مجمع البحرين: «الذرة بتشديد الذال النملة الصغيرة التي لا تكاد ترى، ويقال: إن المائة منها زنة حبة شعير، وقيل: هي جزء من أجزاء الهباء الذي يظهر في الكوة من أثر الشمس»^(٤).

(١) البرقي، أحمد، المحاسن، تحقيق جلال الدين الحسيني، (لا.ط)، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٢٠ش، ج ١، ص ٢٤١.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ١٢.

(٣) الفراهيدي، الخليل، كتاب العين، ط ٢، تحقيق مهدي المخزومي و ابراهيم السامرائي، دار الهجرة، ١٤١٠هـ، ج ٨، ص ١٧٥.

(٤) الطريحي، مجمع البحرين، تحقيق احمد الحسيني، ط ٢، مكتب النشر الثقافة الإسلامية، ١٣٦٧ش، ج ٢، ص ٨٩.

قاعدة أساسية في تفسير الآية

قبل الدخول في تفسير الآية لا بدّ من التأكيد على أنّ تفسير أيّ نص قرآني أو روائي يجب أن ينسجم مع الآيات القرآنية المحكمة، إضافة إلى الأسس العقائدية القطعية، وعليه فإنّ تفسيرها بما يؤدي إلى الجبر مرفوض، حتى لو ورد في ذلك العديد من الروايات، بغضّ النظر عن كونها في كتب أهل السنّة أو الشيعة، وذلك من قبيل ما رواه البرقي بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لَا تُخَاصِمُوا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَحْبُونَا لِأَحْبُونَا؛ إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِيثَاقَ النَّاسِ، فَلَا يَزِيدُ فِيهِمْ أَحَدٌ أَبَدًا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا**»^(١).

فهذه الرواية إضافة إلى أنّها ضعيفة من ناحية السند، إلا أنّ مضمونها يفيد الجبر، لذا لا بدّ إمّا من توجيهها، أو من ردّها إلى أهلها من باب التادّب مع الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

(١) البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ج ١، ص ١٣٦.

الاتجاهات الأساسية في عالم الذرّ

الاتجاه الأول:

القائلون به كثر، وهو أنّ عالم الذرّ هو عالم حقيقيّ سبق عالم الدنيا، وأنّ الله تعالى قبل أن يخلق الناس في هذه الدنيا خلقهم في ذلك العالم، وكانوا كالذرّ في أحجامهم، وهناك شهدوا لله تعالى بالربوبية، واستقرّت معرفتهم به، وإنّ نسوا الموقف بعد ذلك.

وقد استدلّ أصحاب هذا الاتجاه بروايات عديدة منها: ما رواه السيوطي في «الدرّ المنثور» عن أحد أصحاب رسول الله وهو عبد الرحمن بن قتادة السلمي قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله تبارك وتعالى خلق آدم ﷺ، ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فقال رجل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال ﷺ: على مواقع القدس»^(١).

(١) السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، (لاط)، بيروت، دار المعرفة، (لاط)، ج ٣، ص ١٤٥.

ومثل هذه الرواية ما رواه مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(١)، فقال عمر بن الخطاب: «سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ﷺ. ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ، فَقَالَ: خَلَقْتَ هَؤُلَاءَ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ، فَقَالَ: خَلَقْتَ هَؤُلَاءَ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ. وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهُ بِهِ النَّارَ»^(٢).

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٢) مالك، كتاب الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (لاط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٨٩٨-٨٩٩.

وقد أُشكل على الاتجاه بإشكالات عديدة، بغض النظر عن قضية الجبر فيها، منها:

١- **إشكال قرآني:** إنّ هذا التفسير يفيد أنّ الحوار كان مع الذرية التي أخذت من ظهر آدم ﷺ، بينما القرآن الكريم يفيد أنّ الأخذ من ظهور بني آدم ﷺ، وليس من ظهر آدم ﷺ، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾^(١).

٢- **إشكال عقلي:** إنّ الآية تفيد كون الغرض من الإشهاد هو كون الحجة أقيت عليهم، فلا يستطيعون يوم القيامة ادّعاء الغفلة وسقوط الحجة عنهم، إلا أنّ هذا التفسير يقرّ بالنسيان، وبالتالي فإنّ الحجة تسقط وتزول، وعليه لا يبقى الغرض من الإشهاد قائماً.

٣- **إشكال فلسفي:** وهو إشكال مبني على مدرسة الفيلسوف الكبير الملاً صدرا الذي أثبت أنّ النفس جسمانيّة الحدوث، روحانية البقاء، بمعنى أنّ المادة

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

هي المنشأ الأساسي لخلق الله تعالى للنفس، وبالتالي لا يوجد أنفس للناس قبل هذا العالم لكي يتم خطابها. ومن الواضح أنّ الإشكال الأخير قائم على مبنى الملائّ صدرا، كما أنّ الإشكال القرآني، بما أنّه لغويّ، فيمكن النقاش فيه بكون الأخذ من ظهر آدم هو أخذ من ظهور بنيه، لكن يبقى الإشكال العقلي أوجه الإشكالات السابقة.

الاتجاه الثاني

ذكره صاحب تفسير الميزان العلامة الطباطبائي، وهو أنّ عالم الذرّ ليس عالماً سابقاً على هذه الدنيا، بل إنّ الإشهاد على ربوبية الله تعالى حاصل في هذه الدنيا من خلال إراءة الإنسان فيها الآثار والآيات التي تدلّ على ربوبية الله تعالى، فيكون السؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والجواب ﴿بَلَىٰ﴾ هو بلسان الحال.

قال «قد»: ذكر عدة من المفسرين أنّ المراد بهذا الظرف المشار إليه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١﴾ هو الدنيا، والآياتان تشيران إلى سُنَّةِ الخَلْقَةِ الإلهية الجارية على الإنسان في الدنيا، فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه يخرج الذرية الإنسانية من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمهاتهم، ومنها إلى الدنيا، ويشهدهم في خلال حياتهم على أنفسهم، ويريهم آثار صنعه وآيات وحدانيته، ووجوه احتياجاتهم المستغرقة لهم من كل جهة، الدالة على وجوده ووحدانيته، فكأنه يقول لهم عند ذلك: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وهم يجيبونه بلسان حالهم: «بلى، شهدنا بذلك، وأنت ربنا، لا ربَّ غيرك، وإنما فعل الله سبحانه ذلك لئلاَّ يحتجوا على الله يوم القيامة بأنهم كانوا غافلين عن المعرفة، أو يحتج الذرية بأن آباءهم هم الذين أشركوا، وأمَّا الذرية، فلم يكونوا عارفين بها، وإنما هم ذرية من بعدهم نشؤوا على شركهم من غير ذنب» (٢).

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٢) الطباطبائي، تفسير الميزان، (لاط)، قم، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، (لا،ت)، ج ٨، ص ٢١٠-٢١١.

الاتجاه الثالث

القائل به ثلّة من العلماء منهم الشيخ المفيد والسيد المرتضى وهو أنّ عالم الذرّ هو نفس هذه الحياة الدنيا، والإشهاد هو عبارة عن كون الله تعالى قد فطر الناس على معرفته وربوبيّته، فالحوار في الآية يُحمل على كونه مجازاً، وهو يدلّ به على ما أبدعه الله تعالى في تكوينهم من فطرة تشدّهم إلى الله تعالى.

وهناك بعض الروايات المعتبرة سنداً تقرّب هذا الاتجاه كالحديث الذي رواه الكليني بسنده إلى الإمام الباقر عليه السلام: «أنّ زيارة سألته عن قول الله عز وجل: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾^(١) فأجاب عليه السلام: «الحنيفية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله... فطرهم على المعرفة به، قال زيارة: وسألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

(١) سورة الحج، الآية ٣١.

ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١﴾،
 قَالَ ﷺ: أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة،
 فخرجوا كالذرّ، فعرفّهم وأراهم نفسه، ولو لا ذلك لم يعرف
 أحدُ ربّه. وقال: «قال رسول الله ﷺ: كلُّ مولود يولد على
 الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خالقه» (٢).

ومن تلك الروايات المعتبرة ما رواه الكليني بسنده
 عن الإمام الصادق ﷺ بأنه أجاب عبد الله بن سنان
 حين سأله عن قول الله عز وجل: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ
 النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٣) ما تلك الفطرة؟ فأجاب ﷺ: «هي
 الإسلام فطّروهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد،
 قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾» (٤).

معنى الفطرة

تأتي «فطر» بمعنى خلق وأبدع، أي أوجد من لا شيء،

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ١٢.

(٣) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ١٢.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٥).

أما فطرة - بكسر الفاء - فإنها تعني هيئة الخلق ونوعها؛ لأنَّ «فِعْلَةً» هي مصدر دالٌّ على هيئة الفعل ونوعه، كجلسة، فإنَّها تدلُّ على هيئة الجلوس، بأنَّ يقال: جلست جلسة زيد، بمعنى أنَّ الجلوس كان على الهيئة التي يجلس بها زيد. وعليه فقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٦) بمعنى الهيئة التي خلق الله بها الإنسان، إذ تشير الآية إلى هيئة خاصة، لها خصائص أودعها الله فيها عند خلقه.

خصائص الفطرة

إنَّ قوله تعالى ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ يشير إلى خصائص الفطرة التي هي:

١ - إنَّها في كلِّ إنسان، لا يختلف فيها إنسان عن إنسان.

(٥) سورة الأنعام، الآية ٧٩.

(٦) سورة الروم، الآية ٣٠.

٢- إنَّها في كلِّ زمان، فهي كما في الإنسان قديماً، كذلك في الإنسان حديثاً.

٣- إنَّها في كل مكان، في أي بلد كان.

٤- إنَّها لا تحتاج إلى تعليم وتدريب.

ومما يقرب هذه الخصائص ما نجده في الأم وولدها، فقد فطرت على حبّه، وهذا موجود في كلِّ أمّ، لا تختلف فيه أمّ من تاريخ مضى عن أمّ في الحاضر، ولا أمّ في الصين عن أمّ في لبنان، كما لا تحتاج الأمّ إلى تعليم وتدريب على حبّ ولدها.

الفطرة والصبغة والحنيفة

في القرآن كلمتان تقاربان معنى الفطرة هذه، وهما الصبغة والحنيفة.

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١)، فالصبغة هي الهيئة التي لَوَّنَ الله بها الإنسان منذ بداية خلقه، إذ لَوَّنَه بلون الدين، وقد اعتبر بعض

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٨.

المفسّرين أنّ فيه إشارة إلى ما يفعله المسيحيون باسم التعميد، فهم حينما يريدون إدخال شخص إلى المسيحية خاصة حديث الولادة، فإنهم يسكبون عليه ماء التعميد، فيصبغونه بهذا الماء بصبغة المسيحية.

والقرآن يجيب بأنّ الله تعالى صبغ الإنسان من بداية خلقه بصبغة الدين الإلهي.

وكذلك كلمة الحنيفة، فإنّ أصل الحنف يعني الميل، فالحنيف هو الذي يميل إلى الحق، وإلى التوحيد، لهذا فهي تعبير آخر عما زرعه الله تعالى من فطرة في الإنسان.

بناءً عليه، فإنّ زرارة حينما سأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى **«حُنَفَاءَ لِلَّهِ»** أجابه عليه السلام: **«حنفاء الله غير مشركين به»** ^(١).

وكذا ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه حينما سُئل عن معنى **«حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ»** ^(٢)، أجاب عليه السلام: **«هي التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، قَدْ فَطَرَهُمْ عَلَى**

(١) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد ص ٣٣٠.

(٢) سورة الحج، الآية ٢١.

المعرفة»، ثم أشار عليه السلام إلى عالم الذرّ، وإلى الحديث الشريف: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرّانه، ويمجّسانه»^(١). والمقصود بالأبوين هنا هي العوامل الخارجية، فهي التي تحرفه عن فطرة الإسلام إلى غيرها.

إنّ هذا الحديث يقع في خانة الجواب عن السؤال الذي يراود من يسمع بالفطرة، وهو كيف تتلاءم الفطرة التي تشدّ الإنسان نحو الله تعالى مع المنكرين لوجود الله، فأين هي فطرتهم؟

فالنبي ﷺ يجيب في الرواية السابقة بأنّ الفطرة وجدت مع الإنسان، وهي كامنة في داخله، إلا أنّ عوامل خارجية من وسوسات، وأثام ومعاص تعمل عملها في ستر هذه الفطرة، نعم في سترها، وليس في إزالتها. ولهذا يُسمّى من ينكر وجود الله بالكافر؛ لأنّ «كفر» في اللغة تأتي بمعنى ستر، كقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾^(٢) أي أعجب نباته المزارعين؛ وقد

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٨٧.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٠.

سُمِّي المزارعون بالكفّار؛ لأنّهم ينشرون البذور بالتراب^(١)،
فالكافر لم تُزلْ فطرته، بل سترها كفره.

بناءً عليه كان جواب الإمام الصادق عليه السلام لذلك
الباحث عن الله تعالى، إذ قال له:

«يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟»

قال: نعم.

قال عليه السلام: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا

سباحة تغنيك؟

قال: نعم.

قال عليه السلام: فهل تعلق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء

قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم.

قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على

الإنقاذ حيث لا منجى، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث^(٢).

(١) السمرقندي، أبو الليث، تفسير السمرقندي، تحقيق محمود مطرجي، (لاط)،
بيروت، دار الفكر، (لا،ت)، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢، ص٤١.

كيف نوحد الله في العقيدة؟

إنَّ توحيد الله تعالى تارة يتمّ الحديث عنه تارة على مستوى الاعتقاد، وطوراً على مستوى السلوك والعمل، وإجابتنا هنا مخصّصة بالتوحيد الاعتقادي الذي له مراتب منها:

١- التوحيد في الذات

المراد به الاعتقاد بأنّ ذات الله واحدة غير مركّبة من أجزاء، وهذا ما أثبتناه سابقاً عند إثبات أنّ الله تعالى غنيّ، وبالتالي لا يمكن أن يكون مركباً، فهو واحد في ذاته. ومن لوازم هذا الاعتقاد أنّه لا جسم له، ولا مكان له، ولا زمان له، كما تقدّم، كما أنّ من لوازم هذا الاعتقاد أنّه عز وجل لا يمكن أن يحدّد من خلال تصوّر الإنسان له. من هنا

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «التوحيد أن لا تتوهمه»^(١)، أي أن لا تتصوره بوهمك. فالإنسان قاصر عن إدراك حقيقة الله تعالى وكنهه، لذا نلاحظ في القرآن الكريم أن فرعون حينما سأل نبي الله موسى عليه السلام عن حقيقة الله بقوله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾^(٢) فإنَّ كليم الله موسى عليه السلام لم يجبه ببيان الحقيقة، بل ببيان الفعل الإلهي، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٣).

٢- التوحيد في الخالقية

والمراد به الاعتقاد بأنَّ الله تعالى هو وحده خلق كلَّ الكون والوجود، دون أن يشاركه أحد.

ومن الأدلّة على أنه الخالق الوحيد للكون:

وحدة النظام وتناسقه

إن نموّ النباتات وحياة الحيوانات مرتبطان بنور الشمس

(١) الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق حسين الحسيني البيرجندي، ط١، دار الحديث، (لا،ت)، ص٤٥.

(٢) سورة طه، الآية ٤٩.

(٣) نفس المصدر، الآية ٥٠.

الذي يصل من مسافة ٩٠ مليون ميل، إلا أنّ الحبوب التي تتمى بالشمس بحاجة إلى تبريد من خلال ضوء القمر الذي يصل من مسافة ٣٠٠ ألف كلم.

وكما أنّ الحيوانات بحاجة إلى النباتات؛ لأنها تفرز الأوكسجين الضروريّ لحياة الحيوانات، وإنّ كلّاً منهما بحاجة إلى الماء، والماء بحاجة إلى الشمس التي تبخّره لتتحرك من ملايين الأطنان إلى السماء؛ لتحدث الغيوم، لتمطر على الأرض.

وإنّ من الأشجار ما يحتاج إلى الرياح لأجل التلقيح.
وإنّ النحل بحاجة إلى الورود لتتغذى منها، وإنّ الورود بحاجة إلى النحل لتتلاقح.

وإنّ الخروف الذي يأكل العلف يمتاز بمعدة هاضمة للعلف، وأسنان آكلة له، بينما الحيوانات التي تأكل اللحوم تتميز بمعدة هاضمة للحوم.

إنّ هذا الكون متّصل ببعضه ببعض، ومتناسق بعضه مع بعض، ومحتاج بعضه إلى بعض، بما يدلّ بوضوح على أنّ

خالقه ومبدعه ومنظّمه ومنسقه هو واحد لا شريك له. فلو كان له شريك لما رأينا هذا النظام والتناسق الدقيق، بل لدخلت الأشياء في بعضها البعض مما يُؤدّي إلى فساد الكون، وهذا ما أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١).

قال صدر المتألّهين الشيرازي في الأسفار: «إنّ مجموع العالم من حيث هو مجموع شخص واحد، له وحدة طبيعية، وليست وحدته كوحدة أشياء متغايرة اتفق أن صار بالإجماع والانضمام كشيء واحد، مثل اجتماع البيت من اللبّات، والعسكر من أفراد، وذلك بأن أجزاء العالم بينها علاقة ذاتية؛ لأنّها حاصلة على الترتيب العليّ والمعلولي»^(٢).

وقال الفيلسوف الألماني «كنت»: «إن الطبيعة واحدة، وأجزاءها مترابطة، وإذا كان لكل كوكب وجرم قانون

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

(٢) الشيرازي، صدر الدين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١م، ص١١٣.

خاص به، فإنَّ هناك قانوناً يشمل الجميع. وهذه الوحدة في القانون والترابط تدلُّ على تنظيم، ومنظّم واحد.

الخلق بمعنى الإبداع

لا بدّ من الإلفات إلى أنّ التوحيد في الخالقية يراد منه أنّ الله تعالى هو المبدع بمعنى الموجد من العدم، أمّا الخلق بمعنى التشكيل الجديد من مادة سابقة كما يشكّل الرسام لوحة جميلة على خشبة من الشجر، بألوان من الطبيعة. وريشة من الطير، فإنّ خلقه للوحة بمعنى التشكيل من مادة سابقة لا يتنافى والتوحيد في الخالقية؛ لأنّ معناه بالتحديد هو التوحيد في الإبداع، لا في الخلق من مادة.

ونحن غير «معقّدين» من استعمال الألفاظ طالما أنّ قرينة المعنى الصحيح معها، فحينما يقال عن فنان ما بأنّه «خلاق»، وهي صيغة مبالغة من «خالق»، فلا عقدة في ذلك طالما أنّ المراد لا يتنافى مع التوحيد بالمعنى الذي أوضحناه.

من هنا نسب القرآن الكريم الخلق للنبي عيسى عليه السلام،

بمعنى التشكيل من مادة سابقة، إلا أن القرآن الكريم ليبعد الناس عن الوهم بأن عيسى عليه السلام إله قيّد ذلك بقوله بإذن الله، وإلا فإن كل شيء يحصل فهو بإذن الله. قال تعالى عن لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).
 ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾^(٢).

أثر التوحيد في الخالقية على الفقه

وهذا الأمر له انعكاس في الفقه العملي، فإن التغيير في المخلوقات حينما لا يحصل منه الضرر، فإنه لا يناهض عقيدة التوحيد في الخالقية، كما توهم البعض في فتاوى غربية، فقد قرأت في السعودية منشوراً فيه استفتاء للمفتي العام وقتها يُسأل فيه: هل يجوز للمرأة أن تزيل شعر ساقها؟ فأجاب: «لا يجوز ذلك؛ لأنه تغيير في خلق الله».

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٠.

إنّ مثل هذه الفتاوى فضلاً عن كونها لا تنافي التوحيد، فإنّها تعطلّ العقل الإنساني عن التطوّر.

على أساس ما تقدّم نفهم خلفيّة الحكم بجرمة الاستتساخ عند الكثيرين انطلاقاً من أنّه نوع من الخلق المحرّم. كما نفهم خلفية الفقهاء المنتسبين إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام القائلين بجواز أصل الاستتساخ، طالما هو لا يضرُّ بالمولود من ناحية التشوّه ونحوه؛ لأنّ الاستتساخ ليس إبداعاً، بل هو عبارة عن استفادة من تركيب لموجودات مخلوقة، كلّ ما هنالك بدل أن يحصل التركيب من ذكر وأنثى، فإنّه يحصل من نفس الذكر، أو من نفس الأنثى.

٣- التوحيد في الصفات

بمعنى أنّ صفات الله تعالى الذاتية هي عين ذاته.

توضيح ذلك:

أ- تنقسم صفات الله إلى نوعين:

١- **صفات ذاتية**، وهي الصفات المأخوذة من نفس الذات

كالحياة والعلم بحيث لا يصحّ سلبها عن الذات الإلهية مطلقاً، فلا يصحّ أن نقول بأيّ لحاظ: إنّ الله ليس حياً، أو إنّه تعالى ليس عالماً.

٢- **صفات فعلية**، وهي الصفات المأخوذة من ملاحظة

العلاقة بين الله تعالى ومخلوقاته مثل الخالقية والرازقية، بحيث يصحّ سلبها في بعض الحالات عن الذات الإلهية، فيصحّ أن نقول: إنّ الله لم يخلق أباً للنبي عيسى بن مريم عليه السلام، وإنّ الله تعالى لم يرزق فلاناً عالماً واسعاً أو مالاً وفيراً.

ب- إنّ المقصود من التوحيد في الصفات هو كون

الصفات الذاتية ليست زائدة على الذات الإلهية، بل هي عين عينها، فأنا لديّ ذات، ولديّ صفة علم، إلا أنّ العلم لديّ هو زائد على ذاتي؛ لأنّي حينما ولدت كانت ذاتي، ولم أكن عالماً، إذاً العلم صفة زائدة على الذات.

وهنا نسال: هل علمُ الله تعالى هو زائد على ذاته بحيث

توجد ذات إلهية، ويوجد شيء إضافي هو العلم الإلهي، كما

هو حالي، أو إنّ هناك موجوداً واحداً نطلق عليه بأنّه الله، وبأنّه العالم بحيث لا يكون العلم زائداً على الله، بل هو عين الله تعالى.

قالت الشيعة بالثاني، أي إنّ صفات الله الذاتية هي عين ذاته، بحيث لا يوجد ذات + صفات، بل يوجد كائن واحد ذاته هو العالم القادر الحيّ، فحياته عين علمه وعين قدرته. والدليل على أنّ صفات الله تعالى عين ذاته هو:

إن لم تكن هذه الصفات هي عين ذاته، فلها صورتان: **الأولى:** إنّها داخل الذات وأجزاء لها، وهذا مستحيل؛ لأنّ معناه تركّب الذات الإلهية، وقد أثبتنا أنّ الله تعالى غير مركّب؛ لأنّه غني، والمركّب يحتاج إلى أجزائه.

الثانية: إنّها خارج الذات، ولهذه الصورة احتمالان:

- ١- أن تكون غير محتاجة إلى خالق، وهذا باطل؛ لأنّ معناه أنّ هناك العديد من واجبي الوجود، وهذا شرك واضح.
- ٢- إنّها تكون محتاجة إلى خالق، يعني أنّ الذات الإلهية خلقتها، وهذا باطل؛ لأنّ معناه أنّ الذات الإلهية خلقت

العلم، في حين أنها لم تكن عالمة، فهي كانت فاقدة للعلم، وفاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه. إذاً لا بدّ من الاعتقاد أنّ صفات الله الذاتية هي عين ذاته.

٤- التوحيد في الأفعال

بمعنى أنّ فاعل كلّ شيء هو الله تعالى. فلا يوجد فاعل غيره، وقد أثبتنا ذلك عند الإجابة عن السؤال المتقدم: هل الإنسان مسيرٌ أو مخيرٌ؟ فكان الجواب الذي يوائم بين حرّية الإنسان واختياره، وبين كون جميع الأفعال منسوبة لله تعالى.

٥- التوحيد في الربوبية

أثبتنا سابقاً أنّ الموجودات كلّها تحتاج إلى الله تعالى في أصل حدوثها ووجودها، وكذا في بقائها واستمرارها، بمعنى أنّها بعد وجودها لا تستقلّ عنه تعالى، بل هو الذي يتصرّف فيها بما يشاء، ويدبّر أمرها كما يريد، وهذا الأمر هو الذي يعبر عنه بالربوبية التي لها انعكاسات كثيرة في علاقة الله بالموجودات، فهو المحيي، وهو المميت، وهو الحافظ، وهو الرازق، وهو الأمر، وهو الناهي... إلى آخره من أمور التدبير.

وهذه الربوبية تنقسم إلى نوعين:

أ- الربوبية التكوينية

وهي بمعنى تدبير أمور العالم، فالله تعالى هو وحده الربّ المدبّر لأمر جميع الموجودات، فهورّب العالمين.

وقد كانت الربوبية بهذا المعنى محوراً للصراع بين الأنبياء والمشرّكين الذين كانوا يشركون بالله في الربوبية التكوينية، مع اعتقاد جملة منهم بالتوحيد في الخالقية: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ۗ﴾ (١).

لكن مع ذلك كانوا يعتقدون بأنّ الأصنام استقلت عن الله بربوبية الكون وإرادته، لذا كانوا يعبدونها أرباباً مستقلة من دون الله تعالى.

الربوبية المستقلة والتابعة

إنّ الإيمان بإدارة وتدبير ربوبية تابعة لله تعالى في أصل وجودها، وفي استمرارها وبقائها لا يمّس عقيدة التوحيد

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦١.

في الربوبية بأية شائبة، وليس في استعمال اللفظ عقدة حينما تقول: ربّ العمل، وربّ الأسرة، طالما أنّ المراد ليس الربوبية المستقلة.

وعليه فإنّ وصف الله تعالى لملائكته بأنها ﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا﴾^(١)، لا يتنافى مع الاعتقاد بربوبية الله تعالى؛ لأنها مدبرات غير مستقلة، وكذا الأمر في كون ملك الموت مدبراً في مجال قبض الأرواح، وجبرئيل في مقام الوحي، وميكائيل في مجال الرزق، وإسرافيل في مجال نفخ الصور، فإنّ كل ذلك لا ينافي عقيدة التوحيد في الربوبية، وكذلك عند الحديث عن الأنبياء عليهم السلام أو الأوصياء عليهم السلام بأنّ لهم نوعاً من الولاية التي منحهم الله تعالى إيّاها في بعض التدابير التكوينية بشكل غير مستقل، فإنّها لا تضرّ بالتوحيد في الربوبية، كما في قوله تعالى عند حديثه عن آصف وصيّ سليمان عليه السلام بعد أن سأل عليه السلام الحاضرين عن القادر منهم على الإتيان بعرش بلقيس، فقال له آصف - كما ورد

(١) سورة النازعات، الآية ٥.

في القرآن الكريم-: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(١).

ب- الربوبية التشريعية

وتعني تدبير شؤون الكائنات المختارة بسنّ التشريعات التي تهدف إلى إيصالها إلى كمالها بالاختيار لا بالقهر والاضطرار.

انطلاقاً من هذه الربوبية بعث الله أنبياءه، وأنزل رسالاته، ووضع أحكامه وقوانينه.

بناءً عليه فالتوحيد في الربوبية التشريعية يعني الاعتقاد بأنّه لا مشرّع إلا الله تعالى.

٦- الربوبية الألوهية

إنّ كلمة الإله تعني المعبود، وعليه فالتوحيد في الألوهية يعني الاعتقاد أنّه لا يستحق العبادة إلا الله تعالى.

(١) سورة النمل، الآية ٤٠.

وأخيراً

لا بدّ من التأكيد إلى أنّ الحكم بالكفر وعدم الإيمان حينما لا تتحقّق بعض مراتب التوحيد السابقة بحاجة إلى بحث مستقلّ، ولا يصحّ التسرّع بالحكم بكفر من لا يؤمن ببعض المراتب السابقة، لا سيّما حينما يفسّر الإيمان بالإسلام، فالأشاعرة مثلاً لا يعتقدون بالتوحيد الصفاتي السابق بمعنى الإيمان أنّ صفات الله عين ذاته، ومع ذلك فإنّ جمهور علماء الشيعة لم يكفّرهم لأجل ذلك.

كيف نوحد الله في السلوك؟

إنّ مصطلح التوحيد جاءت صياغته على وزن «تفعيل» الذي يؤشّر إلى إرادة تحصيل النتيجة من الفعل، فالتكثير يراد منه تحصيل الكثرة، والتفكير يراد منه تحصيل الفكر وهكذا، فإنّ التوحيد يراد منه تحقيق وحدانية الله تعالى. والأساس في توحيد الله هو توحيده الاعتقادي، إلا أنّ هناك تجلّيات عملية ومسلكية لهذا الاعتقاد، لا سيّما ما يتجلّى من التوحيد في الربوبية والألوهية، فإنّ الاعتقاد بأنّ لا ربّ، ولا معبود إلا الله تعالى ينبغي أو يجب أن ينتج عنه آثارٌ تحقّق التوحيد العملي، وإلاّ فإنّ الإنسان سوف يقع في شرك عمليّ، وهو شرك لا يترتب عليه أحكام الشرك والخروج عن الدين في الدنيا، إلاّ أنّه شرك أخلاقيّ معنويّ على مستوى

التوجّه والمسلّك أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١).

ومن هذه التجلّيات التي ينبغي أو يجب أن يؤكّدها التوحيد الاعتقادي ما يأتي:

١- التوحيد في الطاعة

إنّ الاعتقاد بالتوحيد في الربوبية بمعنى أن لا مدبّر، وراعي، ومدير، ولا مشرّع، ومقنّن إلا الله ينبغي أن يتجلّى بحصر الطاعة في الله تعالى.

وإنّ الاعتقاد بأنّ الإنسان متوقف في وجوده وبقائه على الله تعالى بحيث لا يستقلّ بشيء في عالم التكوين تدفعه في عالم اختياره أن لا يستقلّ عن الله عز وجل بأيّ شيء في عمله، بل تكون كلّ حركة أو سكونه خاضعة للربوبية التشريعية، بحيث يتأكّد الإنسان من مطابقتها لإرادة الله تعالى.

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

فإذا قام الإنسان بعمل دون إخضاعه لإرادة الله عز وجل، بل سلك به لغلبة شهوته أو غضبه أو ما شاكل ذلك، فإنّه في الحقيقة يكون على المستوى العملي عابداً لغير الله تعالى. لذا قال تعالى:

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ ﴾^(١).

ولتحقيق التوحيد العمليّ في طاعة الله تعالى يجب توخّي الدقّة في عدم اللجوء في أيّة قضية تحتاج إلى تشريع، وحكم قضائيّ، وولاية على الأمور لغير المخوّل شرعاً بذلك، وإلاّ فإنّه يتورّط بنوع من الشرك العملي غير العقائدي في الربوبية التشريعيّة، وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام حينما سئل عن رجلين من أصحابه بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاء أيحلّ ذلك؟ فأجابه عليه السلام: « من تحاكم إليهم في حق أو باطل، فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له، فإنما يأخذ سحتاً، وإن كان حقّاً ثابتاً له؛ لأنّه أخذه بحكم الطاغوت، وقد

(١) سورة الفرقان، الآية ٤٣.

أمر الله أن يكفربه قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾^(١). سئل عليه السلام: فكيف يصنعان؟ قال عليه السلام: «ينظران [إلى] من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً؛ فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما استخفَّ بحكم الله، وعلينا ردٌّ، والرادُّ علينا الرادُّ على الله، وهو على حدِّ الشرك بالله»^(٢).

إنَّ تعبير الإمام عليه السلام بأنَّ ذلك هو على حدِّ الشرك بالله يرجع في خلفيته إلى الشرك العملي لا الاعتقادي بربوبية الله التشريعية التي يتحقق التوحيد العملي فيها عبر الالتزام بأحكام الله تعالى، وإطاعة رسوله وأولي الأمر الذين تمثل إطاعتهم تطبيقاً عملياً لطاعة الله عز وجل.

والناس بين التاريخ والحاضر كان أكثرهم بين إفراط

(١) سورة النساء، الآية ٦٠.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢، ص٢٢١.

وتفريط، فمنهم من التجأ في الأحكام والقضاء لغير الله تعالى، فوقع في الشرك العملي، ومنهم وبالتحديد في معركة صفين وقضية الخوارج من أضله شعار «لا حكم إلا لله»^(١)، فرفض حكم وليّ الله المتمثّل بأمر المؤمنين ﷺ عليّ بن أبي طالب الذي علّق على ذلك الشعار بأنّه «كلمة حق يراد بها باطل»^(٢).

وبالتالي فإنّ هؤلاء أسقطوا - عملياً - الله تعالى عن مرتبة الربوبية في الحكم، ليحكموا بعدها الرجال مقدّمين حكمهم على حكم الله عزّ وجل، فوقعوا في الشرك العملي أيضاً.

٢- التوحيد في الاستعانة

إنّ من يعتقد بأنّ الله هو وحده الفاعل الربّ، فإنّ ذلك يدفعه نحو حصر الاستعانة به؛ لأنّ كون الله تعالى هو فاعل كلّ شيء، ومدبّر أمر كلّ شيء، فإنّ العون الذي يسعى إليه

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٤٤.

(٢) المصدر السابق، ج٢٢، ص٥٢٢.

من غيره هو خروج اختياري عن التدبير الإلهي، ووقوع في مصيدة الشرك العلمي.

يُحكى أنّ رجلاً كانت له حاجة لا يقضيها بحسب اعتقاده إلا الملك، فعَبَرَ السهول والوديان والجبال حتى وصل إلى قصر ذلك الملك، وطلب موعداً للقاءه، وانتظر طويلاً طويلاً إلى أن سُمح له باللقاء، فأدخل إلى ردهة القصر، وطلب منه الجلوس، لكنّ مقامه طال في ذلك المكان، فسأل عن سبب التأخير، فقال له الحاجب: إنّ الملك يصلي، وسيستقبلك عندما ينتهي من الصلاة.

حينها التفت إلى نفسه، وترك الردهة وعاد إلى قريته. سأله أحدهم: عبرت السهول والوديان والجبال، وانتظرت كثيراً لتلاقي الملك، ليقضي حاجتك، فلمّا قرب اللقاء تركته؟!

فأجاب: ظننت أنّ حاجتي لا يقضيها إلا الملك، فذهبت إليه، فقيل لي: إنّهُ يصلي لله، يعني هو يطلب حاجته من الله، فتأمّلت، وقرّرت أنّ أترك الملك، وأطلب حاجتي من ربي.

الاستعانة بين الاستقلال والوسيلة

إنّ المُراد من الاستعانة بغير الله هو الاستعانة المستقلّة التي يرى فيها الإنسان أنّ الذي يستعين به هو سبب مستقلّ لإعاقته، أمّا الاستعانة بمعنى الوسيلة غير المستقلة عن الله تعالى، والتي من خلالها يسير الإنسان في حياته، ويسلك في طريق كماله، فهي أمر لا يتنافى مع التوحيد.

وهذا من قبيل الذهاب إلى الطبيب للعلاج، فإنّ الاستعانة به كوسيلة لشفاء الله له، على قاعدة أنّ الطبيب وسيلة، والدواء وسيلة، لكن الشافي الحقيقي هو الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١).

وهذا أيضاً من قبل التوسّل بالأنبياء عليهم السلام على أنّهم الوسيلة غير المستقلّة لسلوك الإنسان طريق الله تعالى، فهذا أمرٌ طبيعي أيضاً لا يتنافى مع التوحيد.

الاستعانة والشرك الخفي

لا بدّ من التأكيد مجدداً أنّ هناك فرقاً كبيراً بين الشرك

(١) سورة الشعراء، الآية ٨٠.

العقائديّ الذي يحكم على المتلبّس فيه بالكفر وبين الشرك العمليّ الذي لا تترتب عليه آثار الكفر، وإنّما يترتب على تجنّبه كمالات معنويّة كبيرة.

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى خطورة عدم التفريق بين الشّرّكين مفيداً أنّ الشرك الذي له آثاره العملية الشرعية منحصر في أمور خاصة في دائرة السلوك، فعنه عليه السلام: «إنّ هؤلاء العوام يزعمون أنّ الشرك أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء على المسح الأسود، فقال عليه السلام: لا يكون العبد مشركاً حتى يصلّي لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو يدعو لغير الله عز وجل»^(١).

إلا أنّ هذا الكلام لا يعني عدم تسمية بعض الأمور المسلكية التي هي خارج السياق الاعتقادي بالشرك، تنبيهاً للإنسان كي يحصل أعلى مراتب الكمال، ومن أمثلة هذا الشرك المعنويّ هو أنّ يعتمد الإنسان على أمر خاص ليتذكر حاجة معينة، كأنّ يكتب في مفكّرة، أو أن يلبس الخاتم في

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٩، ص٩٦.

إصبع آخر لم يعتدّ أن يلبسه فيه؛ ليتذكر حاجته، فإنّ هذا الفعل طبيعي لا يتنافى مع التوحيد، إلا أنّ من يفعل ذلك تارة يبقى ملتفتاً إلى أنّ الله تعالى هو المنبّه والمذكر الحقيقي، وأنّ المفكّرة والخاتم ما هما إلا وسيلة، فلا بأس في ذلك، وتارة أخرى لا يلتفت إلى أنّ الله تعالى هو المذكر الحقيقي، فحينئذٍ يكون قد وقع في نوع من الشرك المعنوي. وإلى هذا ألقت الإمام الصادق عليه السلام في حديثه الوارد بقوله: «إنّ الشرك أخفى من دبيب النمل، وقال: منه تحويل الخاتم؛ ليذكر الحاجة، وشبه هذا»^(١).

٣- التوحيد في الحبّ

إنّ أرقى أنواع التوحيد العمليّ هو أن لا يتعلّق قلب الإنسان بشكل مستقل بغير الله تعالى، فلا يحبّ إلا الله وفي الله، بحيث يكون الله تعالى هو محور حبّه. ومن حبّ الله تعالى حبّ الكمّل من أوليائه الذين يكون حبّهم في الله مدخلاً جاذباً لحبّ الله تعالى.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٩٦.

إنَّ هذا التوحيد في الحبِّ هو سرُّ الحجِّ الإبراهيمي، ولعلَّه سرُّ تسمية النبيِّ إبراهيم عليه السلام بالخليل من الخلَّة التي تعني الحبَّ الخاص، وقد ورد «أنَّ الخلَّة بالضم - مودة متناهية في الإخلاص، وصدقة قد تخلَّت القلب وصارت خلاله أي باطنه»^(١).

من الواضح من سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام أنه كان صاحب قلب كبير قد امتلأ عاطفة وحناناً، حتى وصل فيه الأمر أنه حينما علم بأن ملائكة الله قد أرسلوا لإنزال العذاب على قوم النبيِّ لوط عليه السلام، فإذا به يناقشهم في ذلك، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾^(٢).

لقد ابتلى الله تعالى هذا النبيِّ العاطفي، وهو في عمر المئة والعشرين بأن رزقه الله ولداً فيه الكمالات الراقية التي جذبت قلب أبيه إليه أشدَّ انجذاب، فأراد الله تعالى

(١) الطريحي، مجمع البحرين، ج ١، ص ٦٩٦.

(٢) سورة هود، الآيتان ٧٤-٧٥.

أن يفرّغ إبراهيم عليه السلام قلبه لله بحيث لا يسكنه أحد إلا الله. فكان ابتلاؤه بولده اسماعيل.

- أمره الله تعالى واسماعيل عليه السلام طفل صغير: خذه وأمه إلى وادٍ غير ذي زرع، واتركهما فيه.

- ثم أمره عز وجل واسماعيل عليه السلام في مطلع شبابه: اصعد معه وأمه إلى جبل حيث تمتلئ عقولكم بمعرفة الله تعالى، ثم ازدلفوا إلى المشعر الحرام حيث تمتلئ قلوبكم بالشعور بالله.

- وهناك جاءه الوحي في المنام: أن اذبح ولدك.

- وذهب عليه السلام باسماعيل عليه السلام إلى المذبح، دون أن توقفه عقبات الشيطان.

- وتلّه للجبين.

- ووضع السكين على رقبتة.

- وحرّك السكين ذابحاً.

لكن النتيجة أنّ جبرئيل عليه السلام أوقفه تكويناً بقلب

السكين.

لماذا؟

لأنه نجح في عملية الذبح، لا بذبح ولده، بل بذبح ما
عدا الله في قلبه، لذا كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الله، ونبى
التوحيد؛ لأنه وفى لله تعالى في حبه وعشقه، فنال مرتبة
الإمامة.

كيف نتفاعل مع الغيب؟

في البداية لا بدّ أن نتحقّق من وجود الغيب، ونحسم الاعتقاد والإيمان به بشكل قطعيّ، ثمّ بعد ذلك تأتي مرحلة التفاعل. وللوصول إلى ذلك أوضّح الأمور الآتية:

أ- إنّ معنى الغيب هو الأمر الخفيّ الغائب عن الحسّ، وقد استخدم القرآن الكريم هذا المصطلح مقابل كلمة الشهادة التي تتعلّق بما نشهده ونعرفه في عالم الطبيعة، فقال تعالى: ﴿...عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...﴾^(١).

ب- إنّ مدخل التحقّق من عالم الغيب يحتاج إلى أن يكون الإنسان واقعياً في تحديد مستواه المعرفيّ، مبتعداً عن الغرور العلمي، فبعض الناس يظنّون أنّهم أصبحوا في المرتبة

(١) سورة الزمر، الآية ٤٦.

الأعلى من العلم، وبالتالي فإنهم يحكمون سريعاً على بعض الأمور بالإنكار لأنها ليست في ساحة معرفتهم الفعلية. وقد ألفت القرآن الكريم إلى أهمية معرفة الإنسان لمحدوديته المعرفية مهما بلغ من العلم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

ومن جميل ما ورد من أحاديث أهل البيت عليهم السلام: «العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه هو، ومن نال منه الثاني صغرت إليه نفسه، وعلم أنه ما ناله، وأما الثالث فهيئات لا يناله أحد»^(٢).

من هنا فإن القاعدة الصحيحة هي أن الاعتقاد كما يجب أن لا يكون إلا بالدليل، كذلك الإنكار يجب أن لا يحصل إلا بالدليل.

ج- إن أسباب المعرفة الإنسانية عديدة منها:

١- **الحس**، وهو يواكب الإنسان منذ طفولته، إلا أنه لا يدرك إلا المحدود،

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٢) المناوي، فيض الكبير شرح الجامع الصغير، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، ج٤، ص٥٠٩.

السمع، وهو أداة إدراك الصوت الذي يتناسب مع تحمُّل الأذن، ويكون محدَّداً، له بداية ونهاية، فحينما يسمع الإنسان صوت الرعد، فإنَّما يسمعه؛ لأنَّه يتناسب مع تحمُّل الأذن، وهو يمتدُّ لثوان معدودة ببداية ونهاية، بينما هو لا يسمع صوت حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس؛ لأنَّ ذلك فوق تحمُّل أذنه، وله امتداد قبل ولادة الإنسان إلى ما بعد رحيله عن الدنيا.

والمعرفة بواسطة السمع فرع بقاء جهاز الأذن سليماً، فالخلل في هذا الجهاز قد يعطل هذه المعرفة إمَّا جزئياً أو كلياً.

البصر، وهو أداة إدراك لا تنال إلا المحدود بمكان، أمَّا غير الأجسام المحدودة مكانياً فلا يطالها البصر، وهو يلتفت إلى الشيء حينما يعرف ضده، فلو لم يلتفت إلى ضده، فإنَّه لا يلتفت إليه، فلو افترضنا أنَّ الإنسان عاش في نور من دون ظلمة أصلاً، فإنَّه لن يعرف معنى النور، وسيكون حاله كحال السمكة التي تحدَّث عنها الشاعر بأنَّها سمعت يوماً أنَّ الماء هو أكسير الحياة، فتعجَّبت كيف يكون الماء هو

إكسير الحياة، وهي حيّة، ولم تتعرف على الماء، والسبب هو أنّ الماء يحيط بها من دون أن تعرف ضده، وبقيت السمكة حائرة باحثة عن الماء وهي تسبح في الماء، حتى رماها البحث على الشاطئ، فحينما وصلت إلى اليابسة عرفت معنى الماء، وأنّه إكسير الحياة.

اللمس، وهو أضعف بكثير من البصر، وهو يتعرّف إلى ما يطاله بشكل جزئيّ محدّد.

لقد تعرّض أحد الشعراء إلى قصور الحسّ البشريّ بمثال الفيل، فقد ذكر أنّ الهنود جاؤوا بفيل لعرضه في بلد لم يرَ أهله الفيل من قبل، فوضعه في الليل في غرفة مظلمة ظلمة تامة، بعدها تهافت الناس للتعرّف على هذا الموجود الجديد، وبما أنّه لا مجال للبصر بسبب الظلمة، بدؤوا بتحسّسه باللمس،

- فمن لمس خرطومه قال: إنّهُ موجود كالميزاب،
- ومن لمس أذنه قال: إنّهُ كالمروحة اليدوية،
- ومن لمس قدمه قال: إنّهُ كالأسطوانة،
- ومن لمس ظهره قال: إنّهُ كالسرير.

إنه منبّه على محدودية حاسة اللمس، فلو أنّ أحدهم جاء بقتديل، وأضاء المكان لزال الاختلاف بين الناس، ورأوا حقيقة الموجود.

وهكذا بالنسبة إلى بقية الحواس، هي غير قادرة إلا على إدراك المحدود. وحال الإنسان فيها كحال سائر الحيوانات.

٢- الخيال، وهو اصطلاح منطقيّ خاص يعني القوة التي

يقيس بها الإنسان بين محسوساته، وهذه القوة موجودة في الحيوان أيضاً، ألا ترى أنّ القطعة إنّ أرادت أنّ تقفز على حائط بطول نصف متر، فإنّها تنظر إليه، وتتعلق بطاقة -تناسب- مع طول الحائط، وهكذا الإنسان حينما يصعد أو ينزل على الدرج، فإنّه يقيس المسافة بين الدرجة والأخرى، ويحرّك رجليه بما يناسب ذلك، من هنا لو أخطأ القياس لتعرض للوقوع.

٣- الوهم، وهو أيضاً اصطلاح منطقي يُراد منه القوة

التي تُدرك المعاني الجزئية، كحب الأمّ لطفلها، والطفل لأمّه، وهذا ما نراه واضحاً في كلّ من الإنسان والحيوانات.

٤- **العقل**، وهي القوة التي يفترق فيها الإنسان عن الحيوان، فالعقل بحسب المصطلح المنطقي يعني القوة التي تدرك المعاني الكلية، فالحيوان يدرك حبه لأمه، لكنه لا يدرك معنى الحب العام والكلّي، بينما الإنسان يدرك المعاني الكلية.

وبالعقل يتوصّل الإنسان إلى مدارك كلية، فبواسطة البصر يرى الإنسان هذه القطعة من الحديد تتمدّد بهذه النار، وتلك القطعة من الحديد تتمدّد بتلك النار، ولكنّ العقل هو الذي يتوصّل إلى قاعدة عامة هي أنّ الحديد يتمدّد بالنار.

وكذلك اللمس، فبواسطته يشعر الإنسان بالارتباط بين هذه النار وهذه الحرارة، وتلك النار وتلك الحرارة، إلا أنّ العقل هو الذي يتوصّل إلى قاعدة كلية تتحدّث عن علاقة العلية بين النار والإحراق، بحيث يعتقد أنّ النار علّة للاحتراق. وقد يدرك العقل قواعد كلية غير مرتبطة بالمحسوسات، كقاعدة التسلسل، وفاقد الشيء لا يعطيه اللتين تحدّثنا عنهما سابقاً.

السؤال: هل تقتصر أسباب المعرفة بما مر؟

الجواب: كلا، هناك أسباب أخرى للمعرفة منها:

٥- **الإلهام،** وبتعبير البعض الإشراق، وهذا الأمر يعرفه المفكرون والعلماء الذين صرّحوا بوضوح أنّ المعرفة والنظريات كما تحصل بالتجربة والمشاهدة العينية، وكذا بالاستدلالات العقلية، فإنّها تحصل أيضاً بنوع من الإلهام والإشراق الذي يأتي فجأة إلى روح الإنسان دون مقدّمات حسّية أو عقلية، بل بعد أن يكون قد عجز عن حلّ المسألة التي بين يديه.

ونعرض في هذا المجال لجملة من أقوال العلماء الغربيين:

- قال أنشتاين: «إن النظريات المهمة والكبرى في العالم هي التي تنقذ على نحو الإلهام فجأة، وفي حالة معيّنة في أذهان العلماء»^(١).
- قال ألكسيس كارل: «إنّ النوابع بالإضافة إلى

(١) أنظر، مطهري، دراسات عقائدية، ط١، بيروت، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ٢٠١٠م، ص٧٠.

امتلاكهم لقدرة المطالعة الواعية، وإدراك المسائل والتحقيق فيها، فإنهم يمتلكون قوة أخرى، هي قوة الإشراق والتصور الخلاق، فإنهم تعرفوا بواسطة الإشراق على كثير من الأشياء التي كانت غامضة خفية على الآخرين... وعلى الكثير من الكنوز المخبوءة المجهولة، وبدون تحليل واستدلال^(١).

- قال جاك هادامار وهو أحد علماء الرياضيات الفرنسيين: «حينما نتأمل في الاكتشافات والاختراعات، فلا يمكن لنا أن نهمل تأثير الإدراكات الباطنية المفاجئة، فإن كل عالم محقق قد أحسّ بهذه الحقيقة»^(٢).

ومما يعتبر من نوع الإشراق والإلهام هو الرؤى التي لا تكون بسبب الأحوال الجسمية للإنسان كالجوع، وأحواله الخاصة الأخرى، وذلك من قبيل رؤية نبي الله يوسف عليه السلام ﴿إِنِّي

(١) أنظر: كارل، الكسيس، الإنسان ذلك المجهول، ص ١٣٤ [بتصرف].

(٢) من مقالة له تحت عنوان تأثير الشعور الباطن في البحوث العلمية نقلاً عن: المطهري، مرتضى، المدد الغيبي، ط ٢، بيروت، مركز الإمام الخميني الثقافي، ٢٠٠٧، ص ١٨.

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾ .
 ومن قبيل رؤية الرسول الأكرم ﷺ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
 رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 ءَامِنِينَ﴾ (٢).

النتيجة: إن المعرفة الإنسانية تتخطى الأمور المحسوسة
 بأشواط، ويمكن أن تتال العوالم التي سترتها المادة وغطتها،
 والتي يتعرّف عليه الإنسان بوضوح تام بعد الموت، وهذا ما
 أشار إليه القرآن الكريم بقول: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
 الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٣).

د- إن الأساس في الاعتقاد بعالم الغيب هو ما أثبتناه فيما
 سبق من وجود قوة غير محدودة، حيّة، غنيّة، عالمة،
 قادرة، كريمة، حكيمة، هي التي خلقت كل شيء، وكل
 شيء يرتبط بها في بقائه واستمراره، كما ارتبط بها
 في أصل وجوده، وهي الله تبارك وتعالى.
 وهذا الاعتقاد الغيبي ليس المطلوب تحقيقه نظرياً فقط،

(١) سورة يوسف، الآية ٤.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٧.

(٣) سورة ق، الآية ٢٢.

بل المطلوب أن يحياه الإنسان في حياته. فحينما أعتقد بتلك الصفات الإلهية التي مرّت؛ فإنّها تدعوني أن أسلك سبيل الله تعالى بتسليم تام، دون أن تكون تصوّراتي القاصرة مانعة من سلوك ما يطلب مني؛ لأنّه تعالى غنيّ ليس محتاجاً إلى شيء، مطّلع على كلّ شيء، قادر على كلّ شيء، مفيض جواد على كلّ من يحمل الاستعداد للإفاضة.

إذا ما يوجّهني به يكون قطعاً في سلّم كمالي، ولصالحني دون أي شكٍّ أو ريب، وبغضّ النظر عن ملاءمة ذلك مع تصوّراتي، أو عدم ملاءمته؛ لأنّي قاصر في نظري، وهو محيط بكلّ مشهد الوجود.

وإن لم أكن هكذا، فإنّ حالي سيكون كحال ذلك المتسلّق على جبل مرتفع في ليل مظلم، فتعثّر أثناء صعوده، ووقع من الأعلى حتى أصبح مربوطاً بالحبل بين الأرض والسماء، وقد وقع منه مصباحه أثناء الهبوط، وكانت تلك الليلة شديدة البرد، فإذا به يدعو الله تعالى أن ينقذه من هذه الورطة، لا سيّما أنّ البرد أخذ يتغلغل إلى جسمه بشكل مخيف، وفعلاً استجاب الله لدعائه وألهمه: خذ السكين من جيبك، واقطع

الحبل. فاضطرب المتسلق خائفاً، مشككاً في هذا الإلهام مردداً في نفسه: كيف أقطع الحبل وهو يؤدي أن أهبط إلى الأرض بسرعة قاتلة تنتهي بها حياتي.

نعم لم يستجب هذا الرجل - في هذه العبرة - لنداء الله تعالى، وبقي كما هو.

في اليوم التالي مرّ جماعة، فوجدوه ميتاً، وهو مربوط بحبل بين السماء والأرض، إلا أن المسافة بينه وبين الأرض هي متر واحد فقط.

لو سلّم هذا المتسلق بما أراد الله لأنقذ نفسه، لكنّه ركن إلى تصوّراته القاصرة، فكانت نهايته الموت.

أو سيكون حالي كحال ذلك البحار الذي غرقت سفينته، فأوصله الموج إلى جزيرة نائية ليس فيها بشر، فعمّر غرفة خشبية يحتمي بها من البرد وغيره، وأخذ يدعو الله تعالى أن ينقذه منه هذه الورطة الكبيرة.

وذات يوم وحينما هو يدعو الله تعالى أن يخلصه من مأزقه جاءت صاعقة من السماء، وأحرقت خيمته، فما كان منه إلا أن رفع صوته معترضاً على الله تعالى في ما فعله به،

فبدل أن ينقذه، استرسل في توريطه أكثر فأكثر. لكنه بعد مدة قليلة تفاجأ بفريق إنقاذ حلّ على تلك الجزيرة بعدما شاهد النار تتبعث من الشاطئ.

إنه استسلم لتصوّراته الناقصة، فاعترض على الله تعالى ولم يعلم أنّ الله عز وجل محيط بكلّ شيء، يدبّر أمر عباده لأجل مصلحتهم وكمالهم، وإنّ لم يعلموا بذلك بسبب ضيق أفقهم، وقصور نظراتهم.

إنّ من يعتقد اعتقاداً حقيقياً بالله الغنيّ، القادر، العالم، الجواد، اللطيف، الحكيم، فإنّه سيسلك الطريق الذي يختارها له ربّه دون اعتراض، مهما كانت مواصفاته، وكيفما كانت الغاية المرئية في أفق تطلعاته، سواء كانت أسوار السلطة والجاه للنبي داود وولده سليمان عليه السلام أو كانت كربلاء الإمام الحسين عليه السلام.

حينما يعتقد الإنسان بذلك الاعتقاد حقاً سوف يعيش ثقة بأنّه طالما يسير في سبيل الله دون تقصير فإنّ الغيب سيواكبه في مسيره.

إنّ ذلك الاعتقاد بمواكبة الغيب له سيجعله لا يقتصر في

علاقته مع الأسباب العادية، سيضيف إليها أسباباً أخرى تتعلق بالغيب، كالدعاء الذي ورد أنه «يرد القضاء»^(١)، والصدقة التي ورد أنها تدفع البلاء^(٢).

سيرى ذلك المعتقد المستنزل لمدد الغيب آثار اعتقاده وسلوكه في:

١- نفسه، فيتعرّف على معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

٢- مجتمعه، فيتعرّف على معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرُكْحَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصْرُوا اللَّهَ بِنُصْرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٥).

والحمد لله رب العالمين

(١) الكليني، محمد، الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

(٥) سورة محمد، الآية ٧.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

-أ-

ألكسيس، كارل:

٢. الإنسان ذلك المجهول، [بتصرف].

ابن أنس، مالك:

٣. الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (لا،ط)، بيروت، دار إحياء

التراث العربي، ١٩٨٥م.

ابن أبي طالب، الإمام علي:

٤. نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ط١، قم، دار الذخائر، ١٤١٢هـ.

-ب-

البخاري، محمد:

٥. صحيح البخاري، (لا،ت)، (لا،ط)، دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع، ١٩٨١م.

البرقي، أحمد:

٦. المحاسن، تحقيق جلال الدين الحسيني، (لا،ط)، طهران، دار

الكتب الإسلامية، ١٣٧٠هـ.

-خ-

خان، وحيد الدين:

٧. خان، وحيد الدين، الإسلام يتحدى، ط٩، بيروت، مؤسسة الرسالة،

١٩٨٥م.

-ر-

الزمخشريّ، محمود:

٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، (لا، ط)، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٦٦م.

-س-

السبحانيّ، جعفر:

٩. الالهيات، (لا، ط)، (لا، ن)، (لا، ت).

السمرقندي، أبو الليث:

١٠. تفسير السمرقندي، تحقيق محمود مطرجي، (لا، ط)، بيروت، دار الفكر، (لا، ت).

السيوطيّ، جلال الدين:

١١. الدر المنثور، (لا، ط)، بيروت، دار المعرفة، (لا، ت).

-ش-

الشيرازيّ، ناصر مكارم:

١٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، (لا، ط)، قم، (لا، ن)، (لا، ت).
الشهيد الثاني:

١٣. مسكن الفؤاد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ط١، قم، ١٤٠٧هـ.

الشيرازيّ، صدر الدين:

١٤. الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١م.

شمس الدين، محمّد:

١٥. دراسات في العقيدة الإسلاميّة، (لا، ط)، (لا، ن)، (لا، ت).

-ص-

الصدوق، محمّد:

١٦. التوحيد، تحقيق هاشم الطهراني، (لا،ط)، قم، جماعة المدرّسين، (لا،ت).

-ط-

الطريحي، فخر الدين:

١٧. مجمع البحرين، تحقيق السيد أحمد الحسيني، ط٢، مكتب النشر الثقافية الإسلامية، ١٣٦٧هـ.

الطباطبائي، محمّد حسين:

١٨. تفسير الميزان، (لا،ط)، قم، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، (لا،ت).

الطبرسي، حسين:

١٩. مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م.

-ف-

الفراهيدي، الخليل:

٢٠. كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي و خليل السامرائي، ط٢، قم، مؤسسة دار الهجرة، ١٤١٠هـ.

-ك-

المتقي الهندي، علي:

٢١. كنز العمال، (لا،ط)، تحقيق بكرى حياني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ.

الكليني، محمّد:

٢٢. تحقيق علي أكبر غفاري، ط٤، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥هـ.ش.

-م-

المازندرانيّ، محمّد صالح:

٢٣. شرح أصول الكافي والروضة، تحقيق أبو الحسن الشعراني، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م.

المجلسيّ، محمّد باقر:

٢٤. بحار الأنوار، تحقيق السيد محمد ابراهيم الميانجي ومحمد الباقر البهبودي، ط٢، بيروت، مؤسسة الوفاء.

المناوي، محمّد:

٢٥. فيض الكبير شرح الجامع الصغير، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

المطهري، مرتضى:

٢٦. الإنسان والقضاء والقدر، ترجمة محمد علي التسخيري، ط٢، بيروت، دار التعاون، ١٩٨٧.

٢٧. دراسات عقائدية، ط١، بيروت، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ٢٠١٠م.

٢٨. المدد الغيبي، ط٢، بيروت، مركز الإمام الخميني الثقافي، ٢٠٠٧م.

-ن-

النوويّ:

٢٩. شرح مسلم، (لا، ط)، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

-و-

الواسطيّ، عليّ:

٣٠. عيون الحكم والمواعظ، تحقيق حسين الحسيني البيرجندي، ط١، دار الحديث، (لا، ت).

الفهرس

المقدمة.....	٥
١. كيف نتصوّر الله؟	٧
العقل ومعرفة الله	١٠
دليل الإمكان	١٠
آيات فهم منها التجسيم	١٤
أ- وجه الله	١٥
المعنى.....	١٥
أنشد الفراء:	١٦
ب- عين الله	١٦
المعنى.....	١٦
ج- يد الله	١٦
المعنى.....	١٧
وعليه يمكن تفسير قوله تعالى:	١٨
د- الساق.....	١٨
المعنى:	١٨
هـ- النظر إلى الله	١٩
المعنى.....	١٩
و- العرش والكرسي	٢١
ز- مجيء الله	٢٢

- المعنى..... ٢٢
٢. ما هو سرُّ الخلق؟ ٢٣
- ما هي الحكمة من إيجاد الله تعالى للكائنات؟ ٢٣
- الدليل على حكمة العلة الأولى ٢٦
- ما هي الحكمة من خلق الكائنات؟ ٢٦
- الكمال القهري ٢٧
- الكمال في الجمادات ٢٧
- الكمال في النبات ٢٩
- الكمال في الحيوان ٢٩
- الكمال بين النبات والحيوان ٣٠
- الكمال الاختياري ٣١
٣. لماذا خلق الله العصاة وهو يعلم ما سيفعلون؟ ٣٣
- إنّ مداخلة الملائكة هذه تتألف من أمرين: ٣٣
- أسماء من هي؟ ٣٥
- ١- المنهجية الصحيحة للوصول إلى النتيجة ٣٧
- ٢- تطبيق المنهجية على خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٨
- توسعة دائرة الفائزين ٣٩
- ١- عذر القاصر حتى لو كان خاطئاً ٣٩
- ٢- دور الخصائص الإنسانية في نجات الإنسان وإن كان كافراً ٤١
- ٣- التوبة ٤٣
- ٤- الشفاعة ٤٤
- ٥- الرحمة ٤٥
- والخلاصة ٤٦

٤. كيف يتلاءم البلاء مع العدل الإلهي؟.....٤٧

٤٧..... معنى العدل

٤٨..... العدل واعتقاد المسلمين

٥٠..... المنهجية الصحيحة في النظرة إلى الأشياء:

٥٠..... إن النظرة إلى الأشياء تتم على نحوين:

٥٢..... وهكذا لو سألتك:

٥٤..... عودة إلى السؤال

٥٥..... ١- المساهمة في بناء الشخصية القوية.

٥٥..... ٢- تصويب المسار.

٥٦..... ٣- التعويض الأخروي.

٥٧..... أ- سقوط الجنين.

٥٧..... ب- موت الولد

٥٨..... ج- مرض الجسم

٥. هل الإنسان مسيرٌ أو مُخَيَّرٌ؟.....٦١

٦١..... الاتجاهات الثلاثة

٦٢..... الاتجاه (١): الجبر

٦٤..... الاتجاه (٢): التفويض

٦٦..... بين الاتجاهين

٦٧..... الاتجاه (٣): أمر بين أمرين

٦٨..... المسلمة الأولى: وحدانية الله.

٦٨..... المسلمة الثانية: حرية الإنسان.

٦٩..... والسؤال: كيف نجمع بين هاتين المسلمتين:

٦٩..... الحل في الصورة وليس في الدليل.

- السؤال: من هو السبب في طعن الممرضة؟ ٧٠
- إذاً من هو السبب؟ ٧١
- الصورة الدقيقة للأمر بين الأمرين ٧١
- رسوم توضيحية ٧٤
- ٦. ما هي حقيقة البداء؟** ٧٧
- علم الله تعالى ٧٧
- روايات البداء وتهمة الشيعة ٧٩
- لكن مع هذا الإيمان يأتي سؤال مهم هو: ٨١
- هل هذا القدر حاكم على إرادة الله تعالى؟ ٨١
- ١- جواب المجبرة: ٨١
- ٢- جواب الشيعة: ٨٣
- ومن الروايات الدالة على ذلك، والواردة من طرق الشيعة: ٨٤
- ومن الروايات الدالة على ذلك، والواردة من طرق أهل السنة: ٨٥
- الخلاصة ٨٦
- قصة لطيفة في البداء ٨٧
- استفادات مما سبق ٨٩
- ٧. ما هي حقيقة عالم الذرّ؟** ٩١
- معنى الذرّ ٩٢
- قاعدة أساسية في تفسير الآية ٩٣
- الاتجاهات الأساسية في عالم الذرّ ٩٤
- الاتجاه الأول: ٩٤
- الاتجاه الثاني ٩٧
- الاتجاه الثالث ٩٩

- معنى الفطرة ١٠٠
- خصائص الفطرة ١٠١
- الفطرة والصبغة والحنيفة ١٠٢
- ٨. كيف نوحّد الله في العقيدة؟ ١٠٧**
- ١- التوحيد في الذات ١٠٧
- ٢- التوحيد في الخالقية ١٠٨
- ومن الأدلة على أنه الخالق الوحيد للكون: ١٠٨
- وحدة النظام وتناسقه ١٠٨
- الخلق بمعنى الإبداع ١١١
- أثر التوحيد في الخالقية على الفقه ١١٢
- ٣- التوحيد في الصفات ١١٣
- ٤- التوحيد في الأفعال ١١٦
- ٥- التوحيد في الربوبية ١١٦
- وهذه الربوبية تنقسم إلى نوعين: ١١٧
- أ- الربوبية التكوينية ١١٧
- الربوبية المستقلة والتابعة ١١٧
- ب- الربوبية التشريعية ١١٩
- ٦- الربوبية الألوهية ١١٩
- وأخيراً ١٢٠
- ٩. كيف نوحّد الله في السلوك؟ ١٢١**
- ١- التوحيد في الطاعة ١٢٢
- ٢- التوحيد في الاستعانة ١٢٥
- الاستعانة بين الاستقلال والوسيلة ١٢٧

- ١٢٧ الاستعانة والشرك الخفيّ
- ١٢٩ ٣- التوحيد في الحبّ
- ١٣٣ ١٠. كيف نتفاعل مع الغيب؟
- ١٣٩ السؤال: هل تقتصر أسباب المعرفة بما مرّ؟
- ١٤٦ المصادر والمراجع
- ١٥١ الفهرس
- ١٥٧ صدر للمؤلف



صدر للمؤلف .

١. حقيقة الجفر عند الشيعة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
٢. حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. حائز على جائزة أفضل كتاب لعام ٢٠٠٢م، في مهرجان الولاية الدولي في إيران.
٣. ولاية الفقيه، بين البداهة والاختلاف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. رسالة ماجستير حازت على درجة ممتاز، مع التويه والتوصية بالنشر.
٤. دروس في علم الدراية، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. معتمد في المناهج الدراسية الحوزويّة.
٥. وليال عشر (من وحي عاشوراء)، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
٦. برقية الحسين عليه السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة:

The Telegram of Hussein (pbuh).

Le Télégramme d'Al-Houssein (Qu'Allah le salue).

٧. وأتمناها بعشر (من وحي عاشوراء)، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
٨. المسائل المصطفاة في أحكام الطهارة والصلاة فوز دو ايغواسو.
٩. أحكام النساء. فوز دو ايغواسو.

١٠. التبليغ من وحي التجربة، قمّ.
١١. Paulo em busca da verdade («باولو»، الباحث عن الحقيقة - باللغة البرتغالية).
١٢. «Assalat» A ORACAO NO ISLAM (الصلاة في الإسلام باللغة البرتغالية).
١٣. مختصر الواجبات في الإسلام (UM RESUMO DOS DEVERES (NO ISLAM
١٤. خيوط القبة، بيروت، دار الصفوة.
١٥. حائك القبة (الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين)، بيروت، دار الصفوة.
١٦. التكفير، ضوابط الإسلام وتطبيقات المسلمين، دار الأمير للثقافة والعلوم.
١٧. قافلة البشرية، من سفينة نوح إلى دولة المهديّ ﷺ، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
١٨. هذا رسول الله ﷺ، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
١٩. محاضرات في الثقافة الإسلامية بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
- مجموعة يسألونك، وتضم:**
٢٠. يسألونك عن الله، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. (بين يدي القارئ).

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about Allah.

Ils t'interrogent à propos Allah.

٢١. يسألونك عن الأنبياء ﷺ، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about prophets
Ils t'interrogent sur les prophetes

٢٢. يسألونك عن الأئمة عليهم السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about Imams.
ils t'interrogent sur les imams

٢٣. يسألونك عن الولي، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢٤. يسألونك عن التقليد، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية (مركز نون للتأليف

والترجمة):

They ask you about Imitation.
Il t'interrogent sue le Taqlid.

٢٥. يسألونك عن القبر، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية:

They ask you about Death & the Barrier (The Call for Departure)

٢٦. يسألونك عن القيامة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They Ask You about Resurrection
Ils t'interrogent sur la resurrection

مجموعة تعارفوا، وتضم:

٢٧. دليل العروسين بين الخطوبة والزفاف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية:

Bride & Bridegroom Manual From Engagement to Marriage

٢٨. سعادة الزوجين في ثلاث كلمات، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢٩. ٢ حقوق لحياة زوجية ناجحة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٠. كيف تجعل ولدك صالحاً؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣١. كيف نتواصل مع الناس؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٢. كيف نبني مجتمعاً أرقى؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٣. آية الوصايا العشر، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مجموعة يزكيهم، وتضم:

٣٤. ميزان السير والسلوك، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٥. برنامج السير والسلوك، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٦. هكذا تكون سعيداً، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية: Finding Happiness.

٣٧. كيف ترجع كما ولدتك أمك؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٨. شهر الله آدابه - مناسباته - أولياؤه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٩. لا تقربوا، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٤٠. كيف نتواصل مع الله، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

يمكنك تصفح جميع هذه الكتب وغيرها

على موقع سراج القائم 

www.sirajalqaem.com